دراسات قصيرة في الادب والتاريخ والفلسفة

- ١٩ -

الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة

الطبعة الاولى

بيروت : ١٣٦٧ هـ. - ١٩٤٧ م.

الناشر : مكتبة منيمنه - شارع المعرض ، بيروت

الكلمة الاولى

هذه دراسة موجزة تتناول الفلسفة اليونانية في الدرجة الاولى ، وتؤكد منها ناحيتين اثنتين :

اولاهما — رسم صورة واضحة لهذه الحركة الفكرية العظيمة في تاريخ الانسانية .

الثانية — ابراز تلك الآراء التي كان لها فيما بعد تأثير ظاهر في الفلسفة الاسلامية .

بعدئذ تتتبع هذه الدراسة طريق هذه الفلسفة من اصحابها الى العرب ملمة بالعوامل التي احالتها في كثير من الاحيان عن حقيقتها وعن مجراها الطبيعي ، حتى وصلت عن طريق النقلة السريان في الاغلب الى العرب غير واضحة ولا منظمة . فحاول العرب بعقولهم ان يردوها صافية قدر الامكان ، منظمة جهد الطاقة . ولقد استطاع العرب فوق ذلك ان يحفظوا تلك الفلسفة من الاندثار التام فورثوا اليونان في التفكير وأوتوا نصيباً كبيراً من الحكمة :

« وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً »(١)

٦ محرم ١٣٦٧
٢٠ تشرين ثاني ١٩٤٧

---

(١) القرآن الكريم . سورة البقرة (٢ : ٢٦٩) .

الفهرست

الفصل الاول

الفلسفة

تعريفها اختلف تعريف الفلسفة في اثناء العصور ، ففي العصور القديمة لم تكن تعني سوى البحث في العلوم الطبيعية . ثم اتسع مدلولها حتى شملت جميع المعارف الانسانية . واخيراً استقر المتأخرون على ألا تقتصر الفلسفة على علم دون علم ولا ان تتناول جميع الوجوه في كل علم ، بل ان تعالج طبيعة الوجود والقوانين السائدة فيها والصلات بين اعيان الموجودات ، وان تتناول ايضاً اسس السلوك والمعرفة . وعلى هذا تكون « الفلسفة علم مبادىء الوجود » (١) .

غايتها وللفلسفة غاية واحدة : البحث عن الحقيقة ، وعلى الباحث عن الحقيقة ان يجرد بحثه عن الغايات الصغرى من عاطفية واجتماعية ومادية . عليه ان ينطلق في البحث ويقبل ما يؤدبه اليه بحثه مهما كانت النتيجة التي سيصل اليها .

انواعها تساهل بعضهم في اطلاق اسم الفلسفة على فنون قد تمتّ الى الفلسفة بصلة وقد لا تمت اليها ، فقالوا : الفلسفة الدينية والفلسفة الاخلاقية ، والفلسفة الاجتماعية . . . وفلسفة الموسيقى وما الى ذلك . على اننا نود ان نتناول الدين والاخلاق والاجتماع من نواحيها المطلقة ، وان نجعل هذه النواحي كلها منطوية في الفلسقة عموماً . وهكذا نعني نحن هنا بالفلسفة الفلسفة العقلية وحدها .

الفلسفة والعلم تتناول الفلسفة الناحية النظرية من البحث في مظاهر الوجود . اما العلم فهو الانتفاع بالنتائج الصحيحة التي وصلت اليها الفلسفة : حينما كان

(1) Vgl. Ueberweg I 1.

الاقدمون يتكلمون على تركيب المادة من الذرات او من العناصر كانوا يتفلسفون ، فلما استطاع المعاصرون ان يستخدموا الطاقة الذّرية في الحرب اصبحوا علماء .

كلمة فلسفة ان « كلمة فلسفة » متأخرة في تاريخ التفكير الانساني . هي يونانية الاصل منحوتة من « فيلو » بمعنى محب او صديق و « صوفيا » بمعنى الحكمة . ولقد كان المستعمل في اول الامر كلمة « صوفيا » وحدها . فان « صوفوس = الحكيم » قد اطلقها هوميروس في الالياذة « على النجار البارع ». على انها اطلقت ايضاً على كل بارع في فن ما .

ثم استعظم العقلاء ان يسموا احدهم « صوفوس = حكيماً » فكانوا يسمونه «فيلوصوفوس = صديق الحكمة = فيلسوف» الا ان هذا الاسم كان يدل اولاً على « تهذيب النفس » ، حتى جاء فيثاغوراس (ت ٥٠٣ ق. م.)، فيقال انه أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم(٢) .

الفيلسوف على اننا نحن اليوم لا نسمي المفكر « فيلسوفاً » الا اذا امتاز باربع خصائص : ١ — ان يبحث عن الحقيقة بحثاً مجرداً ؛ ٢ — ان يكون بحثه هذا نظرياً شاملاً لمظاهر الوجود كلها ؛ ٣ — ان يجري هو في بحثه على اسس من المنطق المؤيد بالبراهين ؛ ٤ — وان يوجد « نظاماً » متماسكاً خاصاً يستطيع ان يفسر لنا به مظاهر الوجود . اما اذا فقد المفكر خاصة من هذه فهو «حكيم» .

متى نشأت الفلسفة نشأت الفلسفة من محركين مهمين في الطبيعة البشرية : الفضول والخوف من الموت . أما الفضول فقد دفع الانسان الى ان يتساءل عن اسباب

(٢) الفهرست ٣٤٢ — ٣٤٣ . Ueberweg I 2.

المظاهر الطبيعية ، فاستيقظ العقل الانساني لما حوله وحاول الانسان ان يوجد لاعماله وسلوكه نظاماً ثابتاً ، وهكذا نشأت الفلسفة الطبيعية . اما الخوف من الموت فقد اعطانا فلسفة ما وراء الطبيعة : حينما ادرك الانسان ان الموت سيقطع حياته في هذه الدنيا عز عليه ان يصير الى العدم فاخذ يبحث في نفسه عن مصيره بعد الموت وعن القوة التي تسيطر عليه هنا وفيما بعد . وكذلك احب ان يعرف الغيب فنشأت العرافة والكهانة ، وجعل الانسان يتعبد لكل ما يخاف منه ، فعبد مظاهر الطبيعة الجائحة كالانهار الكثيرة الفيضان والصواعق والحيات المؤذية والسباع المفترسة والاخيلة الغريبة (كالشياطين) .

ولاشك في ان هذا كله نشأ في زمن بالغ في القدم وقبل بعثة الانبياء عليهم السلام .

الفلسفة القديمة نعني بالفلسفة القديمة ، الفلسفة التي ازدهرت قبل ظهور الاسلام ، في الشرق او في الغرب .

اما الفلسفة الصحيحة في الشرق فكانت قليلة جداً ذلك لأن الدين كان آخذاً من النفوس مأخذه ، فلم يستطع المفكرون الشرقيون ان يقوموا ببحث معزول عن الدين في نفوسهم . وهنالك سبب آخر ، هو اهتمام الشرقيين بالبحث العلمي في العلوم المختلفة كالفلك والطب والرياضيات ، وهذا جعلهم علماء لا فلاسفة . على ان الهنود وحدهم قد مالوا الى شيء من التفكير النظري والى تخيل نظام للعالم مبني على « الشمول » .

اما في الغرب فاننا لم نر هذا التفكير النظري الا عند اليونان ، فلا الشعوب الشمالية ولا الرومان اهتموا بالفلسفة الا بمقدار اهتمامهم باليونان انفسهم .

لماذا ازدهرت الفلسفة في اليونان لازدهار الفلسفة في اليونان عاملان : عامل خارجي وعامل داخلي .

اما العامل الخارجي فهو احتكاك اليونان بالمدنيات الشرقية، فقد كان الطب والهندسة والري مزدهرة في مصر ، وكان الفلك خاصة مزدهراً في العراق . وكذلك حمل الفينيقيون الاحرف الهجائية من الشرق الى اليونان وحملوا معها ورق البَرْدي فساعدت الكتابةُ على نضج التفكير وعلى انتشار نتائجه. ولقد تم احتكاك اليونان بالشرق من طريق التجارة ومن طريق الرحلات العلمية خاصة ، فان ثاليس اول فلاسفة اليونان قد زار مصر وزار العراق في الأغلب . وكذلك تعلم فيثاغوراس في مصر من الكهان .

واما العامل الداخلي فراجع الى البيئة اليونانية في ذلك العهد : لما اطل القرن السادس قبل الميلاد(٥٩٩ ق . م.)كانت اليونان قد ازدهرت سياسياً واقتصادياً واصبح لها مستعمرات منثورة في حوض البحر المتوسط . على ان المهم في الموضوع ان الفلسفة اليونانية لم تنشأ في شبه جزيرة اليونان نفسها بل في المستعمرات اليونانية على السواحل الغربية من آسية الصغرى حيث كان السكان قليلي الاحتفال بالآلهة المتعددة ، فلم تكن تلك الآلهة تملك عليهم عواطفهم وتصرفهم عن التفكير . فما ان خطر لهؤلاء ان يضربوا بالخرافات عُرض الحائط حتى نشأت بينهم حركة فكرية فتحت امامهم مجال التفلسف .

الفصل الثاني

نهضة الفلسفة اليونانية

نعني بالفلسفة اليونانية الفلسفةَ التي نشأت على ارض يونانية ثم انتشرت مع انتشار الفتح اليوناني او الاستعمار اليوناني او الثقافة اليونانية حتى جاء الاسلام. ولقد ملأت هذه الفلسفة حِقبة تبلغ الفاً ومائتي عام.

ولقد قسم مؤرخو الفلسفة هذه الحقبة المتطاولة ثلاثة أدوار كبرى:

١ — التفكير الطبيعي، وهو يمتد نحو مائة وخمسين عاماً: من اوائل القرن السادس الى اواسط القرن الخامس قبل الميلاد (نحو ٦٠٠ — ٤٥٠ ق.م)، ويغلب على هـذا الدور البحث في مظاهر الطبيعة وفي الاعداد. وفي هذا الدور كان مركز الفلسفة خارج بلاد اليونان الاصلية، ولذلك يسمى هذا الدور ايضاً «ما قبل الدور الاتيكي» (١).

٢ — دور التفكير الانساني، وهو يمتد نحو مائة وخمسين سنة اخرى: من اواسط القرن الخامس الى اواخر القرن الرابع قبل الميلاد (٤٥٠ — ٣٠٠ ق.م). وتغلب على هذا الدور النزعة الانسانية (او المدنية)، اي الاهتمام بالانسان بالاضافة الى ما حوله، وبتنظيم المعارف التي وصل اليها اصحاب الدور الاول. وبما ان فلاسفة هذا الدور كانوا في أثينـة، فان فلسفتهم سميت الفلسفة الاتيكية. ويعد هـذا الدور بمجموعه اعظم ادوار الفلسفة اليونانية، بل هو على الحقيقة اعظم ادوار الفلسفة باطلاق.

٣ — الدور الهيلاني الروماني، وهو يمتد نحو تسعة قرون: من اواخر القرن

---

(١) أتيكا Attica مقاطعة عاصمتها اثينا، عاصمة اليونان اليوم.

الرابع قبل الميلاد الى اواسط القرن السابع للميلاد (٣٠٠ ق . م - ٦٥٠ م) .

وعلى الرغم من طول هذا الدور فانه اقل الادوار ابتكاراً وان كان اكثرها حجمَ انتاجٍ ، اذ يغلب عليه التلفيق (ضم الآراء المختلفة بعضها الى بعض) والشروح على كتابات المتقدمين ، والجدال في القيم الروحية والروايات الدينية ، وهجر المبادىء المطلقة الى الملابسات النسبية والاحوال الصوفية . وفي هذا الدور كثر التبديل والتحريف في الفلسفة اليونانية عفواً من الجهل ، او عمداً لنصرة المذاهب الدينية السائدة يومذاك . وقد نشأت في هذا الدور ايضاً مراكز للفلسفة خارج اليونان ، اشهرها الاسكندرية .

المذاهب اليونانية ولقد كان في كل دور من هذه الادوار الكبرى مذاهب يمثل كل واحد منها عددٌ من الفلاسفة . هذه المذاهب هي موضوع هذه الدراسة ، مضافاً اليها آثارها الاولى التي احدثتها في الشرق وبين العرب قبل نهضة الفلسفة الاسلامية نهضتها الاصيلة .

١ — المَذْهَبُ الأَيُونيُّ

الفلاسفة الطبيعيون الاقدمون (الدهريون)

القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد

في مطلع القرن السادس قبل الميلاد نشأت في المستعمرات اليونانية على الشاطىء الغربي من آسية الصغرى ، حركة فكرية غايتها تعليل المظاهر الطبيعية (كالشمس والسماء والارض والبحر والزلازل الخ) على اساس علمي من البحث عن حقائق الامور ، ثم ردّ هذه المظاهر الى اسباب مادية تعمل في عالم الطبيعة عملا آليا ، ولكنه عمل حكيم (مبني على قوانين طبيعية وغير متناقض) . اما من قبل فكانت هذه المظاهر تعلل على أساس من الخرافات ومن تدخّل الآلهة المتعددة

في اعمال الناس وفي مظاهر هذا العالم الطبيعي. وهكذا كان اصحاب هذا المذهب أقرب الى ان يُسَمَّوْا « علماء طبيعيين » من ان يُسموا « فلاسفة » .

وامتاز اصحاب المذهب الايوني بخيال رحيب فبحثوا في السماء والارض والنجوم والغمام والعناصر ومبدأ الخلق والحياة وفي الفلك خصوصاً ، فاصابوا في اشياء واخطأوا في غيرها .

وخصائص المذهب الايوني اربعة:

١ - حاول الايونيون ان يردوا الاجسام المختلفة في العالم الى «اصل أساسي» او « عنصر » واحد ، فزعم أولهم ثالس انه الماء ؛ وأكد خلفه اناكسيمندروس ان هذا « العنصر » غير معين ولا محدود ؛ وزعم بعدهما اكسيمانس انه الهواء ، وظن هيراكليطوس انه النار . ولقد بنى الايونيون تفلسفهم هذا على ما كانوا يشاهدونه امامهم من فعل الماء والهواء والنار ، وعلى انهم كانوا يرون لهذا العالم نظاماً واحداً شاملا ، حتى قال ابن رشد : « لما تأمل القدماء الموجودات ورأوا أنها كلها تؤم غاية واحدة : وهي النظام الموجود في العالم .... اعتقدوا انه يجب ان يكونو للعالم مبدأ واحد (تهافت التهافت ١٧٦ ، ١١٧) » .

ومع ان الايونيين قد اخطأوا في كثير من تفاصيل تفلسفهم ، فانهم قد اصابوا في ايقاظ العقل البشري الى التفكير والى التفسير الطبيعي لمظاهر العالم .

٢ - واجمعوا على انه لا ينشأ شيء من العدم ولا ينعدم شيء موجود : ان كل ما نراه حولنا كان موجوداً منذ الازل - بمادته لا بصورته - وسيظل موجوداً الى الابد .

وبهذا الرأي عدَّهم متفلسفوا الاسلام في « الدهريين » الذين جحدوا الصانع المدبر للعالم ، وقالوا بزعمهم - ان العالم لم يزل موجوداً على ما هو عليه بنفسه ، لم يكن له صانع صنعه . . . وان الانسان من النطفة والنطفة من الانسان (٤٩ - ٥٠) » .

وكذلك قال الايونيون ان العناصر الاولى يستحيل بعضها الى بعض ، فيصبح

الماء تراباً والهواء ناراً الخ، كل ذلك حتى يعللوا نشوء الاجسام المختلفة في العالم من عناصرهم المحدودة.

(ويحسن ان نلاحظ ان ما سموه «عناصر» انما هو «مركبات»).

٣ – واعتقد الايونيون ان « الوجود حي » وان المادة تحمل في نفسها سبب الحركة والتبدل؛ وعلى هذا سماهم مؤرخو الفلسفة « القائلين بالمادة الحية » Hylozoists (من ulé الهيولى بمعنى المادة الاولى = و dzoe بمعنى الحياة).

٤ – الشمول . لما نظر الايونيون الى العالم على انه كله وحدة وجود، وهو متكون من مادة واحدة تتبدل من صورة الى صورة وان القدرة على هذا التبدل موجودة في المادة نفسها لم يجدوا بداً من ان القول بان مجموع الوجود هو « الله » ، او ان الله والعالم هما شيء واحد لا يمكن فصل احدهما عن الآخر ....

ثاليس ولد ثاليس الملطي (٦٢٤ – ٥٤٥ ق . م) في مدينة مليطون او الملطية، وزار مصر واستفاد من كهانها علم المساحة (الهندسة). ولعله تعلم الفلك من البابليين. وقد استطاع ثاليس ان يحسب الكسوف الذي حدث في اثناء الحرب بين الفرس واهل ليدية (٢٨ ايار ٥٨٥ ق . م) . وكان ثاليس رياضياً ومنجماً وحكيماً وفيلسوفاً وتاجراً ، وهو اول الفلاسفة اليونانيين ، واول من وصلت الينا اخباره منهم، ولعل كتبه قد ضاعت ايضاً . ومقام ثاليس في تاريخ الفلسفه عظيم :

أ – فصل بين التفكير والخرافة .

ب – جعل الرياضيات وعلم ما وراء الطبيعة من اسس البحث الفلسفي .

ج – اخذت منه جميع المذاهب اليونانيه آراءها ما عدا الفيثاغوريين .

اما وجود فلسفته فهي التي تلي :

١ – الماء. عاش ثاليس على شاطىء البحر فاخذته روعة الماء، فجعل الماء «العنصر» الاساسي في تكون العالم. لقد قال: «ان كل شيء ماء»، والماء ابدع الجواهر

كلها بين السماء والارض وما بينها. وهو علة كل مُبدَع (مخلوق) وعلة كل مركب من العنصر الجسماني : من جمود الماء تكونت الارض (والتراب)، ومن انحلاله تكون الهواء، ومن الدخان والابخرة تكونت السماء، ومن الاشتعال الحاصل من الاثير تكونت الكواكب (الشهرستاني ٣ : ١٦٠ - ١٦١) » .

ولقد اخطأ ثاليس حينما قال ان الماء يتحول الى تراب والتراب الى هواء . ومبعث خطأه انه رأى لكل نهر «دلتا» تتكون عند مصبه فلم يفطن الى ان النهر يجلب الطمي معه الى المصب، بل ظن ان الماء نفسه يتحول الى تراب . وكذلك لما رأى البخار يتصاعد من الارض ظن ان التراب نفسه يصبح بخاراً لا ان الماء الممزوج بالتراب يتحول بفعل الحرارة الى بخار . ولكنه اصاب في جعل الماء عنصراً اساسياً (وقصد بذلك الرطوبة على الاغلب) لأنه رأى الاجسام الحيوانية والنباتية اذا كانت حية كانت رطبة، فاذا ماتت جفت .

٢ - الطبيعة الحية . اعتقد كالايونيين عموما ان المادة حية، ولم يستطع التحرر من خرافات قومه فاعتقد ان الاجسام مملوءة بالآلهة او ان لها نفوسا، واستشهد على ذلك بالمغنطيس الذي يجذب الحديد . ثم نسب الى بعض الاشياء انوثة او ذكورة، فان الماء ذكر والارض (التراب) انثى . . . . والنار ذكر والهواء انثى » (الشهرستاني ٣ : ١٦٠) .

٣ - صورة العالم . قال : من صفوة الماء تكونت النار، ومن الابخرة تكونت السماء، ومن الاشتعال الحاصل من الاثير تكونت الكواكب فدارت حول الارض .... اما الارض نفسها فهي لوح سابح على الماء، ومن ارتجاجه تحصل الزلازل .

٤ - ماوراء الطبيعة . ويعتقد ثاليس ان فوق السماء عوالم لايستطيع المنطق ان يصفها ولا يقدر العقل على ادراك حسنها وبهائها، وهو الدهر المحض واليه تشتاق العقول والانفس لانه هو الديمومة والبقاء (الخلود) . ويعتقد ثاليس ايضاً

ان للعالم علة مبدعة لانعرف هويتها ولا اسمها، ولكننا ندرك وجودها بما نرى نحن من آثارها

٥ — الهندسة . حمل ثاليس الهندسة من مصر الى اليونان ونشرها هنالك ، وله في الهندسة اكتشافات ونظريات هي بباب تأريخ العلم الصق منها بباب تأريخ الفلسفة .

اناكسيمندروس ولد اناكسيمندروس (٦١٠ – ٥٤٦ ق . م) في ميليطون ايضاً ، وكان تلميذاً لثاليس وصديقاً له . وبرع اناكسيمندروس في الهندسة والفلك (طبقات ١ : ٣٨) . وله رسالة اسمها « في الطبيعة » بقي منها قطع متفرقة ، وهي اول كتاب فلسفي واول كتاب نثر في اللغة اليونانية . وله ايضاً مصورات للقبة الزرقاء وللقسم المسكون من الارض ، ولعله اخترع المِزْوَلة (الساعة الشمسية) ، او انه أدخلها الى اليونان من بابل (العراق) .

وبعض آراء اناكسيمندروس قريبة جداً من نتائج العلم الحديث :

١ — العنصر الاساسي ، عنده ، « أصل » او « مبدأ » لا صفة خاصة له ، ولكنه مادة ازلية غير قابلة للانعدام او الاندثار وغير متناهية في امتدادها . منها تكون الاشياء وفيها تفسد : ومنها كانت السموات والارض وما بينهما .

● « يكون » هنا فعل تام لا فعل ناقص ، ومعناه حدوث صور جديدة في مادة ما ، فحينما نصنع مثلا ابريقاً من طين نقول : كانت (اي حدثت) صورة الابريق ، وفسدت (اي زالت) صورة الطين .

٢ — صورة العالم — كان العنصر الاساسي » مندفعا في حركة دائمة فتفرقت منه مواد مختلفة : انفصل الحار اولاً (لأنه اخف)، ثم انفصل البارد . ثم دار الحارّ حول البارد وغلفه على شكل الكرة : حينئذ عمل الغلاف الحار على تمديد الرطوبة التي في داخله فاستحالت الى هواء ، فزاد حجمها ، فمزقت الغلاف الحار حزائق اسطوانية الشكل مغلقة بالهواء ، فجعلت تدور حول الارض . ثم حدث في هذا

الهواء ثقوب كثقوب المزمار تظهر النار من خلالها ، فكان ما نسميه الشمس والقمر والنجوم .

اما الارض نفسها فاسطوانية الشكل نسبة علوها الى عرضها كنسبة ٣ : ١ ، وهي غير مستندة الى شيء ، بل سابحة في الفضاء ، ولها سطحان متقابلان نحن على اعلاهما . وقد تكونت اليابسة من جفاف بعض الرطوبة الاصلية ، اما القسم الذي لم يجف فقد اصبح بحراً . والمطر نفسه يسقط من البخار الذي ولدته الشمس من الارض .

وقد ادرك اناكسيمندروس ان ابعاد الاجرام السماوية واحجامها متفاوتة جداً . وان عالمنا (نظامنا الشمسي) ليس الوحيد من نوعه ، بل هو واحد من عوالم كثيرة ، بعضها اكبر من عالمنا واشد تعقيداً . وبيّن ايضا ان هذه القبة التي تبدو فوقنا ليست سوى جزء من كرة تامة .

٣ — التطور النوعي . قال اناكسيمندروس ان الحياة الاولى نشأت في البحر ، ان الانسان يجب ان يكون قد نشأ من نوع له شكل مغاير لشكله الحاضر . ان جميع الانواع قد نشأت اولاً في الماء على شكل الاسماك ، ثم اتفق ان قُذف بعضها على اليابسة فتكيف حسب البيئة الجديدة التي ألفى نفسه فيها ، وتغير شكله على مقتضى ذلك . ولقد اقتضى الانسانُ خاصة تطوراً أطول ، حتى استطاع ان يعيش في بيئته الحاضرة .

انكسيمانس لعل انكسيمانس (نحو ٥٨٤ — ٥٢٥ ف. م.) ولد ايضاً في ميليطون . وكان من تلاميذ اناكسيمندروس . وقد كتب انكسيمانس كتاباً في اللهجة الايونية — لهجة جزر بحر ايجه — بقي لنا منه مقطعات متفرقة . ومن المؤرخين من ينسب اختراع المزولة اليه .

وتتلخص فلسفة انكسيمانس في ما يلي :

١ — العنصر الاساسي . وافق انكسيمانسُ استاذه اناكسيمندروس في ان

العنصر الاساسي غير متناه من حيث الامتداد ، ولكن خالفه في جعله معيناً ، كما فعل ثالس من قبل ، ولكن جعله «الهواء» لا الماء (الشهرستاني ٢ : ١٦٦) .

٢ — اللطافة والكثافة . اتخذ انكسيمانس لتحول بعض العناصر الى بعض مبدأ اللطافة والكثافة . اذا لطف الهواء او رقّ اصبح ناراً ، ولكنه اذا كثُف اصبح ريحاً فغماماً ثم ماءً ثم تراباً ثم حجارة . فالهواء عنده « اول الاوائل من المبدَعات .. . ومنه يكون جميع ما في العالم من الاجرام العلوية والسفلية . . . فما تكوّن من صفو الهواء (من النار) فهو لطيف روحاني دائم لا ينعدم ولا يقبل الدنس ، وذلك عالم الروحانيات . واما ما تكون من كدر الهواء (التراب) فهو كثيف غير دائم وقابل للانعدام (راجع الشهرستاني ٢ : ١٦٥، ١٦٦). والعامل على تلطيف الهواء وتكثيفه هو الحركة التي تسيطر عليه ، وعلى هذا يندثر العالم ويتجدد مرة بعد مرة ، فهو اذن مُحدَث غير قديم وقابل للانعدام غير خالد . وانكسيمانس يخالف في ذلك من تقدم ويقترب من اعتقاد الفقهاء .

٣ — روح الفرد وروح العالم . لما اتخذ انكسيمانس العنصر الاساسي ورآه يملأ المكان كله جعله ذا حياة ، وجعله النفَس الجزئي الذي يهب الحياة للاجسام والنفس الكلي الذي يحيط بالعالم فيجعله حيّاً .

٤ — صورة العالم . اخذ انكسيمانس من اناكسيمندروس ان الارض سابحة في الفضاء ، ولكنه ظل متمسكاً بما قاله ثالس من انها لوح مسطح .

اما السماء عنده فهي قبة ، والنجوم مثبتة في داخلها . والنجوم تدور لأن القبة نفسها تدور ، وهي ضعيفة النور والحرارة لبعدها عنا . واما الليل فيحدث من احتجاب الشمس وراء مرتفعات في الجانب الشمالي من الارض ، ومن انها تكون حينئذ قد ابتعدت عنا كثيراً ، لأنها هي ايضاً تدور مع القبة .

هيراكليطوس الافسوسي واما هيراكليطوس (نحو ٥٣٥ ـ ٤٧٥ ق. م.) فقد ولد في افسوس ، على الشاطىء الغربي من آسية الصغرى ايضاً . كان من اسرة نبيلة فكان يكره الديموقراطية والعامة منذ نشأته . والف هيراكليطوس كتاباً اسمه « في الطبيعة » قسمه ثلاثة اقسام : الطبيعيات ـ السياسة ـ الاخلاق. ويظهر ان مواد هذا الكتاب كانت حكماً مُقتضبة غامضة ، ذلك لان المؤلف قصد بها الطبقة المثقفة واراد حجبها عن العامة .

هيراكليطوس اشبه بالفلاسفة الايونيين ولذلك عددناه معهم . الا انه اهتم بالناحية الاجتماعية . ولم يكن بحاثة رزيناً متسق البحث ، بل نقاد عاطفي .

كانت فلسفة هيراكليطوس متعددة النواحي :

١ — تخيل هيراكليطوس مظاهر العالم تتبدل بسرعة فقال ان العالم في « سيلان دائم » كالنهر الجاري ، فان نقطة الماء لا يمكن ان تكون مرتين في مكان واحد منه ، حتى ان النقطة نفسها اذا عادت في النهر نفسه مرة اخرى فانها لا تجري في مجراها السابق منه . وكذلك ليس في العالم « راحة » او « هدوء » ، او على حد التعبير الفلسفي « وجود ساكن » بل هنالك « كون مستمر » : هنالك انتقال دائم من حالة موجودة بالفعل الى حالة منتظرة تليها بالضرورة .

ولنأخذ على ذلك مثلاً التمر الذي هو ثمر النخل ، فانه يبدأ بُسراً اخضر فجاً ثم يصير رُطباً اسودَ ناضجاً . ولكنه لا ينتقل من البُسر الى الرطب فجأةً بل تدريجاً . على ان هذا التدرج نفسه مستمر بلا انقطاع ولا توقف ؛ وفي كل يوم ، بل في كل ساعة ، بل في كل لحظة تكون ثمرة النخل اقرب الى ان تكون رُطبة منها الى ان تظل بُسرة . ثم شبه هيراكليطوس الحياة كلها بالنهر الذي تراه من بعيد هادئاً ولكنه ابداً متحرك نحو مصبه .

● وقد انكر ابن رشد هذا القول فقال : هذا القول في غاية السقوط وان كان قد قال به القدماء : اعني ان الموجودات في سيلان دائم (تهافت التهافت ١٣٧) ، فان الاشياء ليست في سيلان دائم (ص ٥٧٢) .

٢ - الصفات المتناقضة واستمرار العالم . ان التبدل في العالم لا ينقل الاشياء من حال الى حال مشابهة لها دائماً ، بل الى حال مناقضة لها احياناً . فالانتقال من البُسر الفج الى الرُطب اليانع ، ومن الصبا الى الشيخوخة ومن النهار الى الليل ومن الصغر الى الكبر ضروري لوجود هذا العالم .

٣ - التنازع والكفاح ، وهذا التبدل المتعاقب على المادة سببه الكفاح القائم فيها ، فالكفاح اذن « ابو الاشياء ومليكها » . ولولا هذا الكفاح الذي تتكثر به ذوات الاشياء وانواعها لظل العالم شيئاً واحداً بسيطاً لا كما هو اليوم . ثم ان هذا الكفاح او التنازع او الحرب او المقاومة مستمر ، ولو انه بدأ ثم وقف ايضاً لركد العالم وجمد ثم اندثر .

٤ - العنصر الاساسي . لم يجد هيراكليطوس عنصراً اساسياً يفسر به هذا التبدل المستمر المتعاقب في مظاهر الطبيعة خيراً من « النار » ، فانها تمثل الحركة الدائمة صعوداً بتحولها هواءً وهبوطاً بتحولها تراباً او ماءً ، او رجوعاً بتحول الهواء والماء والتراب ناراً . والنار عنده حاملة الحياة واشرف ما في العالم .

٥ - صورة العالم . يتصعد من التراب والماء عنصران ألطف من اصلهما . فالمتصعد من التراب كثيف مظلم يزيد في النار . ويتكون من العنصر الكثيف شبه زوارق يكون العنصر اللطيف فيها ناراً ملتهبة : هذه هي النجوم والكواكب والشمس .

ويكون الخسوف والكسوف بانقلاب هذه الزوارق الحاملة للهيب فجأة ، فتختفي النار عن اعيننا . اما اوجه القمر فتتشكل من انقلاب زورق القمر تدريجاً . واذا التهبت الابخرة المتجمعة في الفضاء بفعل الشمس كان النهار ، واذا تجمعت وتكاثفت كان الليل . ثم اذا تكاثر تصاعد الابخرة الصافية من الارض كان الصيف ، فاذا زادت الرطوبة وتجمعت كان الشتاء .

٦ - نظام العالم . هذا العالم لم يوجد اتفاقاً ولا اعتباطاً (بلا حكمة) ولكنه وُجد بقدَر وعلى نظام ثابت . وكل ما فيه يجري على نظام ووفق قوانين

ثابتة . هذا النظام لم يوجده اله من آلهتهم ولا بشر مثلهم ، بل كان موجوداً منذ الازل وسيظل موجوداً الى الابد . انه واحد في ذاته ثابت غير متحرك ، ولكنه يسبب تبدل المظاهر وتناقض الصفات في العالم .

٧ — النفس . هي الجزء العاقل في الانسان ، وهي غير النفَس او الروح . انها جزء من « النفس الكلية » التي تحيي العالم ؛ انها تدخل اجسامنا بالتنفس ومن طريق الحواس ايضاً . واذا كانت النفس التي فينا اشد جفافا كانت اشبه بالنار وكنا نحن احسن ذكاء ، بينما انفس البلداء اشد شبها بالتراب واكثر رطوبة . واذا ارادت النفس ان تفرح وتلهو ترطبت .

٨ — الاخلاق . الاخلاق ان تسير حسب نظام العالم الطبيعي وتعيش بما يقضي العقل . ولكن اكثر الناس لا يفهمون الا بقدر ما في نفوسهم من الاستعداد للفهم . ومثل ذلك قولُ المتنبي ايضاً :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم ؛
ولكن تأخذ الافهام منه على قدر القرائح والعلوم

٩ — العامة . وهيراكليطوس قليل الاحترام للعامة ، فهم يتبعون الشعراء (الخياليين) والجهال ، ويتخذون الغوغاء اسوة لهم من غير ان يعلموا ان اكثر الناس كالانعام ، وان النزر اليسير من الناس فقط يفقهون ما يريدون او يفعلون ، وسيان عند العامة التبر والتبن . وان اكثرهم ليحشون بطونهم بالطعام كالبهائم . وعندي ان رجلا واحداً صالحاً خير من عشرة آلاف من سائر القوم . ولقد قال الاعشى مثل ذلك ، قال :

انت خير من الف الف من القو م اذا ما كبت وجوه الرجال

ويتبع احتقار هيراكليطوس للعامة احتقاره لحياتهم الدينية ، فهم يحاولون ان يتطهّروا من خطايا الدم بالدم ، كما لو ان رجلاً تلوث بالوحل فاراد ان يغسله عنه بالوحل . انني لو رأيت رجلاً يستمع الى هؤلاء لحكمت عليه بالجنون . ثم ان

العامة يصلون للاصنام (يدعونهم) كما لو كانوا يخاطبون بشراً امثالهم ، الا انهم لا يعلمون شيئاً عن حقيقة الآلهة ولا عن حقيقة الابطال .

٢ — المَذْهَبُ الفِيثَاغُورِي

مذهب الاعداد — فيثاغورس والفيثاغوريون

*

اهتم الايونيون بالمادة ، فبحثوا على العنصر الاساسي الذي تتكون منه الاجسام ، اما الفيثاغوريون — وهم فيثاغوراس وآله (أتباعه) — فقد اهتموا بالاعداد ، واعتقدوا ان حقائق الاشياء انما هي في النسب العددية . وتناول الفيثاغوريون مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية ، ولكنهم فسروها كلها ايضاً على اساس « العدد » .

اما معضلة الفلسفة الفيثاغورية فهي انها ليست نتاج عقل واحد ، بل نتاج عقول كثيرة ، ولكنها كلها منسوبة الى فيثاغوراس .

فيثاغوراس فوثاغوراس او فيثاغوراس (نحو ٥٨٨ — ٥٠٣ ق. م.) نشأ في جزيرة ساموس او سامس من جزر بحر ايجة ، وكان صحيح البدن قوياً ، تعلم في صغره الآداب واللغة والموسيقى ، ولما التحى توجه الى مدينة ميليطون (نحو ٥٧٠ ق. م.) وتلقى على انا كسيمندروس الهندسة والفلك ، ثم سافر الى الشرق فزار مصر بلا ريب وبابل والشام .

ومن مصر رجع فيثاغوراس الى ساموس وبنى فيها منزلا للتعليم . ثم لما ساءت حالة ساموس وكثر فيها الاستبداد في ايام طرانة (١) فولوقراطيس رأى فيثاغوراس انه لا يحسن بالحكيم المكث على الطرانة والغشم فرحل الى ايطالية .

---

(١) الطرانة كلمة يونانية معناها الاستبداد والاطرون Tyrannus تورانوس : المستبد بالحكم في المدن اليونانية .

والثابت ان فيثاغوراس لم يخلف تآليف ، على الرغم من كثرة ما نسب اليه منها (الفهرست ٣٤٣ طبقات الاطباء ١ : ٤٢ و٤٣) . واكبر الظن ان تلاميذه واتباعه نحلوه كتباً كثيرة، اما اعترافاً بفضله او ترويجاً لها بين الناس .

واشهر اوجه الفلسفة الفيثاغورية هي التي تلي:

١ — اوجه الوجود . اهمل الفيثاغوريون «الاصل الاساسي» المادي للوجود وبحثوا عن حقيقة الوجود في احوال من النِسَب الرياضية والصفات المتناقضة. ثم تخيلوا ان العالم مؤلف من عشرة ازواج من الاضداد : المحدود وغير المحدود ـ المستقيم وغير المستقيم ـ الواحد والمتكثّر ـ الايمن والايسر ـ المذكر والمونث ـ الساكن والمتحرك ـ الخط المستقيم والخط المنحني ـ النور والظلمة ـ الخير والشر ـ المربع والمستطيل .

ومع ان هذه المزدوجات المتناقضة ليست كل ما في العالم من نوعها ، فان الاجسام تتألف عند الفيثاغوريين ، من اجتماع بعض هذه الازواج الى بعض .

٢ — نظرية العدد . لما بنى الفيثاغوريون الوجود على النسب الرياضية ، قالوا ان العالم كله مبني على الاعداد : المظاهر الطبيعية وفضائل النفوس واحوال الاجتماع ايضاً ، حتى خرجوا بذلك الى الخرافة . ولقد خالف الفيثاغوريون جميع الرياضيين حينما جردوا العدد من المعدود تجريد الصورة من المادة وتخيلوه موجوداً محققاً قائماً بنفسه وجعلوه اول مبدع ابدعه الباري (الشهرستاني ٢ : ١٧٥) .

ولما درسوا خواصّ العدد والهندسة كالاعداد المزدوجة أو المفردة ، والاعداد التي تنقسم على اثنين بلا باقٍ ، ثم درسوا الخط والسطح والمكعب الخ ، طبقوا ذلك على الخرافة فزعموا ان التراب مكعب وان النار جسم يحده اربعة مثلثات. وقالوا ان العدد « اربعة » يدل على العدل لأنه مجموع اثنين واثنين او حاصل اثنين في اثنين. اما العدد «خمسة» فيدل على الزواج لانه مؤلف من «٢» (اول عدد مؤنث)

٨	٣	٤
١	٥	٩
٦	٧	٢

و «٣» (اول عدد مذكر) . ولهم المربع المعروف الذي تُثبَت فيه الارقام من «١» الى «٩» غير مكررة ، فيكون مجموع كل صف عمودي او افقي مستقيماً او مائلاً «١٥» .

على ان الفيثاغوريين وضعوا اسس علم الرياضيات اليوناني. وكذلك ينسب الى فيثاغوراس نظريات هندسية منها ان مجموع زوايا المثلث تساوي زاويتين قائمتين . ومنها ان المربع على وتر المثلث القائم الزاوية مساوٍ لمجموع المربعين على ضلعي ذلك المثلث .

٣ — الموسيقى واصوات النجوم . والى الفيثاغوريين يرجع الفضل في اكتشاف السلّم الموسيقى والنِسَب في الوتر ، فقد علموا ان الصوت الحاصل من نقر نصف الوتر او ربعه يختلف من الصوت الحاصل من نقر الوتر كله . وقيل « ان فيثاغوراس استخرج بذكائه علم الالحان وتأليف النغم واوقعها تحت النسب العددية . . . . وسمع حفيف الفلك » .

اما سماع اصوات النجوم ففسروه كما يلي : جميع الاجسام المتحركة بسرعة تحدث لحناً ـ صوتاً موزوناً عذباً او مزعجاً ـ وكذلك للكواكب اصوات . ولكن بما اننا نحن ولدنا والصوت موجود فقد الفت آذانُنا هذه الاصوات فاصبحت لا تشعر بوجودها . ولكن لو اتفق ان وقفت الكواكب فجأة عن الدوران لشعرنا بخلاء آذاننا من ذلك اللحن . ومثل ذلك مثل الطحان الذي تعود صوت طاحونته . فهو ينام بينما البغل يدور بها . فاذا وقف البغل عن الدوران استيقظ الطحان .

٤ — صورة العالم .. تخيل الفيثاغوريون النار كرة عظيمة في وسطها نار تشتعل . ثم تخيلوا في قلب هذه الكرة العظيمة اكراً شفافة (افلاك) مختلفة الاحجام أثبتت فيها الكواكب ، على الترتيب التالي : النار الوسطى ـ زُحل ـ المشتري ـ المرّيخ ـ عطارد ـ الزُهرة ـ الشمس ـ القمر ـ الارض . وكذلك

(١) راجع ابن صاعد ٢٢ ، طبقات ١ : ٣٧ ، الشهرستاني ٢ : ٧٢ ، ١٧٩ .

تخيلوا كوكباً شقيقاً للشمس (يعترض بينها وبين النار الوسطى ليدفع حرها). ونحن نعيش من الارض على الجانب الذي لا يقابل النار الوسطى والكوكب الشقيق. والشمس تدور مرة في العام حول النار الوسطى. اما الارض فتدور مرة في اليوم حول النار الوسطى. ونور الشمس مستمد من النار الوسطى.

٥ — النادي الفيثاغوزي. لما رحل فيثاغوراس الى ايطالية اسس في مدينة قروطونية Kroton نادياً ارستوقراطياً (اي قاصراً على المفكرين — لا الوجهاء). وكان فيثاغوراس يشترط لدخول ناديه امتحاناً قاسياً من القيام باعمال تدل على الطاعة المطلقة والمقدرة ومكارم الاخلاق. وكانت الحياة في النادي قائمـــة على التقشف: فتركوا اكل اللحمان في الاغلب واللوبيا الداجنة (لانها تغذي كاللحم)، ولبسوا الخشن من الثياب، وعاشوا كلهم معها عيشة اشتراكية كأنهم اسرة واحدة. ويروون عن فيثاغوراس انه قال: ان اموال الاخلاّء مشاعة غير مقسومة (طبقات ١ : ٣٨).

اما غاية النادي فكانت تثقيف الفرد بالاخلاق والعلوم والاعمال النافعة ليكون عضواً صالحاً في الدولة عاملاً لخير المجموع.

٦ — الرمز. قال ابن ابي اصيبعة (١ : ٣٨، ٤١): «كان فيثاغوراس يرمز في حكمته ويسترها. فمن ألغازه انه كان يقول: لا تعتد في الميزان، اي اجتنب الافراط؛ ولا تحرّك النار بالسكين لانها قد حميت فيها مرة، اي اجتنب الكلام المحرّض. . . . ؛ ولا تلبس تماثيل الملائكة على فصوص الخواتيم، اي لا تجهر بديانتك واسرار العلوم الالهية عند الجهال».

٧ — النفس والتناسخ. يقول الفيثاغوريون: «النفس صورة الجسد»، ويقصدون ان النفس تقيم الجسم (تهب له شكله)؛ فالجسم محتاج الى النفس اما النفس فليست بحاجة الى الجسم. وهم يرون ان النفس انما هي ذلك «الهباء المنثور» الذي يتطاير في الهواء والذي يظهر اذا اشرقت الشمس عليه في غرفة او نحوها.

واعتقد الفيثاغوريون بالتناسخ (بانتقال النفس من جسد الى جسد بين الناس

والحيوان ايضاً) ، فقد قيل ان فيثاغوراس مر يوماً بجرو يُجلد ، فقال : لا تجلدوه ، فان فيه نفس صديق لي عرفتها في صوته .

٨ — الدين والالهيات . مزج فيثاغوراس الدين بالفلسفة ، واعد لاتباعه منهاجاً دينياً مبنياً على الاخلاق ، وقد دعا اتباعه الى الا يتأثروا بآراء العامة . وكان يقول : ان العامة تظن ان الباري تعالى في الهياكل فتحسنُ سيرتها فيها (القفطي ٣٠٠) .

وقد بنى الفيثاغوريون رأيهم في الالهيات على نظرية العدد ، فقالوا : « ان الباري سبحانه وتعالى واحد كالآحاد و (لكنه) لا يدخل في العدد (١) » ، اي ان نسبة العدد « واحد » الى ما بعده من الاعداد هي نسبة الباري الى ما بعده من الموجودات . فكما ان جميع الاعداد مشتقة من الواحد وهو غير مشتق من شيء ، فكذلك جميع الموجودات صدرت عن الله تعالى وهو لم يصدر عن شيء تقدمه . والباري تعالى « عالم بجميع المعلومات عن طريق الاحاطة بالاسباب التي هي الاعداد والمقادير ، وهي لا تختلف فعلمه اذن لا يختلف » (٢) . ثم اننا نحن لا نعلم حقيقة الله ولا ذاته ، اذ هو لا يُدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس... ولكنه يدرك من نحو آثاره وافعاله . وكل عالم من العوالم (البشر والافلاك والنبات الخ ...) يدرك الله بقدر ما فيه من آثار الباري وافعاله وبقدر ما جُبل في نفسه من الاستعداد لادراك ذلك (٣) .

٩ — الشمول وخلود النفس . يرى الفيثاغوريون ان العالم « وحدة من الاعداد » ، ويقولون : « ان المقابل للواحد (اي الله) هو العنصر الاول » (الشهرستاني ٢ : ١٧٧) ، وهكذا يكونون قد جعلوا الله والمادة ـ الطبيعة ـ شيئاً واحداً . فهم بذلك شموليون .

---

(١) الشهرستاني ٢ : ١٧٣ .
(٢) الشهرستاني ٣ : ١٧٧ .
(٣) راجع الشهرستاني ٢ : ١٧٣ .

واما خلود النفس ، فذكر ابن ابي اصيبعة (١) ان فيثاغوراس « كان يقول ببقاء النفس وكونها فيما بعد في ثواب وعقـاب على رأي الحكماء الالهيين . . . وان فوق عالم الطبيعة عالماً روحانياً نورانياً لا يدرك العقل حسنه وبهاءه ، الا ان الانفس الزكية تشتاق اليـه . وان كل انسان احسن تقويم نفسه بالتبرؤ من العُجب والتجبر والرياء والحسد وغيرها من الشهوات الجسدانية ، فقد صار أهلاً ان يلحق بالعالم الروحاني ويطلع على مايشاء من جواهره من الحكمة الالهية . وان الاشياء الملذوذة للنفس تأتيه حينئذ ارسالاً كالالحان الموسيقية الآتية الى حاسة السمع فلا يحتاج الى ان يتكلف لها طلباً . ويقال ان فيثاغوراس يرى ان الطريق الى الآخرة واحد من جميع النواحي ، وان على الانسان ان يكتسب خلاص نفسه (طبقات ١ : ٤٠ ، ٤١) .

٣ — المَذهبُ الإيليُّ

الوجود غير متبدل — خداع الحواس — نفي العدم

نشأ المذهب الايلي في مدينة ايلية في جنوبي ايطالية على ايدي يونانيين ، كما نشأ المذهب الفيثاغوري ايضاً في جنوبي ايطالية على يد يونانيين .

كان الايونيون يقولون بعنصر اساسي مادي يتقلب من حـال الى حـال ، وكانوا يرون ان الوجود دائم التقلب . اما الايليون فقالوا ان الوجود هادىء غير متبدل . كما انهم نفوُا الخلاء والحركة . ولكنهم لما رأوُا الوجود حولهم يتبدل اضطروا الى الاعتراف بهذا التبدل ولكن نسبوه الى خداع الحواس واصروا على ان العقل يدرك الوجود ثابتاً غير متحرك ولا متبدل .

وقد قال الايليون بان الوجود محدود ، اما ما ليس محدوداً فهو عدم ، والعدم لا وجود له .

(١) طبقات ١ : ٣٧ ، ٢ : ١٧٢ ، ابن صاعد ٢٢ ، راجع القفطي ٢٥٨ — ٢٥٩ .

ويظهر ان الايونيين قد اهملوا البحث في « الله » فحدث رد فعل في العامة انتقل الى الفلاسفة فعرّفوا الالوهية بانها وحدة شاملة هي الوجود بامره .

اكسنوفانس ولد اكسنوفانس في مدينة كولوفون بآسية الصغرى، ونشأ شاعراً ينتقد عادات العامة الدينية والاجتماعية وما يتعلقون به من الخرافات حينما ينسبون الى الالهة أعمالا كاعمال البشر . فثار عليه العامة فهاجر الى مدينة ايلية في جنوبي ايطالية . وعاش اكسنوفانس نحو مائة سنة (٥٨٠ ـ ٤٨٠ ق. م.) .

كان اكسنوفانس شاعراً ونقادة اجتماعياً ، ولم يكن فيلسوفاً بالمعنى الصحيح؛ فهو في الايليين مثل هيراكليطوس في الايونيين . وعلى كل فهو مؤسس المذهب الايلي . اما ميزاته الخاصة فهي التي تلي :

(أ) — انه اول فيلسوف الهي : لقد اراد ان يرى في نظام هذا العالم «وحدة عاقلة» تشمله وتسيره .

(ب) — حمل رسالة تهذيبية وهاجم الخرافات والآراء الوثنية التي كانت منتشرة في قومه .

وتتلخص فلسفة اكسنوفانس في ما يلي :

١ — وحدة العالم ووحدانية الله . يقول اكسنوفانس : « ان هذا العالم كله وحدة تامة هي الله » . ثم انه يحاول ان يرى الله ـ او الالوهية على الاصح ـ مجرداً من هذا العالم المادي فيجعله وحدة تامة للصورة الفضلى والحسنى لهذا العالم . وهكذا نراه شمولياً كالايونيين . ثم ان هذه الالوهية ازلية غير متبدلة ولا تصير الى العدم ، وهي فوق ذلك عاقلة حكيمة :

هو الله احد، انه اعظم كائن بين الالهة وبين الناس . لا شبيه له بين البشر... وعقله يحيط بكل شيء . وهو لا يوصف بأنه محدود او غير محدود ، ولا بأنه ساكن او متحرك ، وهو يحرك كل شيء ويسيطر عليه من غير ان يتحرك او

مجد : انه يفعل ذلك بقوة عقله . . . وان العامة لبخطئون اذ يظنون ان الالهة يولدون ، وان لهم ثياباً كثيابهم واصواتاً كاصواتهم واشكالاً كاشكالهم... انهم يتخيلون الله على ما يعرفونه من انفسهم وبيئتهم. ولو ان الثيران والخيل والسباع كان لها ايد وكانت تستطيع بها صُنعاً كالبشر لرسمت الثيران آلهتها على صورة الثيران ولرسمت الخيل آلهتها على صورة الخيل . الا نرى الاحباش يقولون عن آلهتهم انهم فُطس الانوف سود الالوان ، بينما اهل تراقية (شمالي اليونان) يذكرون ان آلهتهم زرق العيون حُمر الشعر ؟ والحقيقة انه ما من احد عرف حقيقة الله ولا انه سيُقيَّض له ان يعرفها .

وبعد ان يصف اكسنوفانس الله بهذه الصفات السلبية يعود فيصفه وصفاً ايجابياً فيذكر ان الله ـ او الالوهية على الاصح ـ كروية الشكل وانها بصر كلها وسمع كلها وعقل كلها .

ويرى اكسنوفانس ان الله كان موجوداً ، وكانت صور الاشياء التي في عالمنا موجودة معه (منذ الازل) أيضاً . ثم ان صور هذه الاشياء حققت نفسها في عالمنا. ولهذا يقول الشهرستاني (٣ : ٩) يزعم اكسنوفانس ان الذى خلق الاشياء ليس الله وانما صور تلك الاشياء التي كانت موجودة مع الله .

ويحسن ان نعرف منذ الآن ان علماء الكلام في الاسلام قد تأثروا كثيراً ببعض اقوال اكسنوفانس.

٢ — صورة العالم . يرى اكسنوفانس ان عنصر التراب رق ولطف فنشأت منه النجوم . والنجوم غيوم مشتعلة لشدة حركتها ، غير انها تنطفىء كل يوم عند غيابها ثم تشتعل من جديد عند شروقها . اما الشمس فتسير في فلك مستقيم ، وما انحناؤها في مسيرها سوى خداع من بصرنا لبعدها عنا . واما الارض فنعرف لها سطحاً ينتهي عند اقدامنا ، ولكنها من تحتها تمتد بلا نهاية . وكذلك قوس السماء او قوس قُزَح فليس سوى غمام يتراءى لنا بنفسجيا وأحمرَ واخضر . اما البحر فهو مصدر المياه والرياح والغمام .

وهكذا نجد اكسنوفانس ايوني الرأي الا في « خداع البصر » .

٣ — لما رأى اكسنوفانس « المتحجرات » في اجواف الحجارة وعلى قنن الجبال، استنتج ان الحيوانات وجدت يوم كان الماء يغطي الارض. ثم وسّع نظريته فقال ان كل شيء سيعود مرة بعد مرة طيناً بعد ان يغطي الماء وجه الأرض وعندئذ تموت جميع انواع الحيوان وتتحجر . ثم ينحسر الماء عن وجه الارض ، وتعود اليها الحياة من جديد ، وهكذا دواليك .

ومع ان اكسنوفانس لم يتكلم في « العنصر الاساسي » فقد فسر الوجود المادي على اساس التراب والماء فقال :

« من التراب الى التراب : بدء كل شيء ونهايته — كل ما نشأ ونما فهو تراب — كلنا نشأ من تراب وماء » .

٤ — القوة العقلية والقوة العضلية . انب اكسنوفانس العامة لكثرة اهتمامهم بابطال الرياضة البدنية ، فقال : « ان الحكمة خير من قوة الرجال والخيل ، وانه لمن الخطل ان نفضل قوة الجسد على الحكمة » . لقد اثاره ان ابطال الرياضة كانوا يفوزون بالتكريم ويتخطّون القوانين على رقاب الناس ، بينما هم لا يهتمون بتثقيف عقولهم . « وما الخير في ان يجهد الانسان لرفع حمل ثقيل بينما البغل العادي يحمل اكثر منه ؟ واي جدوى في ان يتمرس الانسان بصراع الناس بينما الثور الضعيف يستطيع ان يغلب اقوى الرجال ؟ انه لمن الخطل ان يهمل البشر عقولهم ثم يفتخرون بان لهم عضلات كعضلات الخيل والثيران » .

برمينيذس برمينيذس (نحو ٥٤٠ — ٤٨٠ ق . م) يوناني الاصل ولكنه ولد في ايلية بايطالية فتتلمذ على اكسنوفانس وتأثر بالايونيين والفيثاغوريين . ونظم برمينيذس فلسفته شعراً .

ان اكسنوفانس هو الذي اسس المذهب الايلي ، ولكن برمينيذس نظمه

ووسّعه . وكانت فلسفته تدور حول « المسأله المشهورة عند القدماء وهي القائلة : هل الوجود واحد او اكثر من واحد ؟ (تهافت التهافت) » . وهو يعتقد — بخلاف هيراكليطوس خاصة — ان الوجود واحد لا يتغير ولا يتبدل : هكذا كان وهكذا هو الآن وهكذ سيبقى الى الابد .

وتتلخص فلسفة برمينيذس في الاوجه التالية :

١ — حقيقة الوجود ونفي العدم . الوجود هو الحقيقة ، اما العدم فليس موجوداً . والوجود دائم باق ، لا يمكن ان يكون قد جاء من العدم لانه لو جاء من العدم لكان العدم شيئاً ، وهذا تناقض . وكذلك لا يمكن ان يكون قد جاء من شيء ، اذ لا يمكن ان يأتي شيء من نفسه . فالوجود اذن واحد غير متبدل ، والموجود موجودٌ ابداً والمعدوم معدوم ابداً ولا يمكن لشيء ان ينعدم بعد ان يكون موجوداً ولا ان يوجد من العدم .

٢ — نفي الخلاء والحركة . تخيل برمينيذس الوجود كرة مصمّتة (ممتلئة) . وهكذا نفى برمينيذس « الخلاء » في العالم ، وهذا يقتضي نفي الحركة ، لأن الاجسام لا يمكن ان تتحرك الا اذا كان لها خلاء تتحرك فيه . فالخلاء اذن والعدم شيء واحد .

٣ — خداع الحوّاس . الوجود واحد غير متبدل ، ولكننا « نشعر » ان العالم الحسي حولنا يتغير ويتبدل ، وانه متكثر : ان انواع الاثمار مثلا كثيرة ، ثم ان الزهرة تنقلب ثمرة (تتكشف عن ثمرة في الاصل) والثمرة تنقلب بزرة . . . الخ . « ولكن هذا كله خداع من حواسنا تُشبّحه لنا وتزوقه فيجب الا نعتمد في المعرفة على الحواس ، بل على العقل الذي يدرك الموجودات كما هي في حقيقتها لا كما تبدو لحواسنا » .

٤ — التناقض واثنينية العالم — نظرية المعرفة . لما قال برمينيذس بان الوجود واحد غير متبدل ثم اعترف بان هذا الوجود يبدو لحواسنا متكثراً متبدلا افترض

عالمين : عالماً حقيقياً هو عالم الوجود الثابت ؛ وعالماً وهمياً هو العالم المتبدل امام حواسنا . ثم انه تبع فيثاغوراس في القول بوجود متناقضات : الحرارة والبرودة، الخفة والثقل ... وانتهى بان بنى العالم على مبدأين : مبدأ النور ومبدأ الظلمة فخرج بذلك من القول بوحدانية العالم الى اثنينية العالم . ولما استطاع برمينيذس ان يميز اعيان الموجودات بما فيها من الصفات المتناقصة خطا الخطوة الاولى في وضع « نظرية المعرفه ».

٥ — صورة العالم . قال برمينيذس بان الارض مركز العالم ، وانها كرة سابحة في الفضاء . وبما ان الارض تتطلب ان تتوازن في الفضاء فقد نشأ لها حركة تمايلية . اما القمر فيستمد نوره من الشمس .

٦ — احتقار العامة . وبرمينيذس يحتقر العامة ويهاجم الفلاسفة الذين يخالفونه في الرأي، ثم ينصحنا بقوله: ابتعدوا عن الطريق التي يهيم فيها اناس لا علم لهم ، يقودهم الريب والحيرة .!. فيهرعون الى كل مكان : صُمٌ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يعقلون، وهم انعام لا يفكرون... يظنون ان الوجود والعدم شيء واحد، وما هما كذلك».

زينون الايلي وزينون (نحو ٤٩٠ ـ ٤٣٠ ق. م.) ولد ايضاً في ايلية وتتلمذ على برمينيذس ، وكان حكيماً وسياسياً وطنياً قاوم الاطرون (الملك المستبد) نيارخ فمات شهيد مبدأه . ويظهر ان لزينون هذا كتباً متعددة اشهرها كتاب نثر يدافع فيه عن رأي استاذه وعن الفلسفة الايلية . ولم يكن له فلسفة خاصة .

ولقد فسّر زينون الفلسفة الايلية تفسيراً واضحاً :

١ — الجسمية لها عِظَم . كل موجود له عِظَم (حجم) : طول وعرض وعمق ، وهو قابل للقسمة . وكل ماليس بجسم فلا يمكن ان يكون موجوداً . واذا فرضنا جسماً لا حجم له فقد فرضنا باطلاً ، ذلك لاننا لو اضفنا هذا الجسم الذى لا حجم له الى جسم آخر لما زاد في حجمه شيئاً ، ولو

فصلناه لما نقص منه شيء ، وهذا محال .

٢ — الوحدانية والتكثر في العالم . نقض زينون رأي القائلين بالتكثر في العالم بطرق اربع .

(أ) — نقض التكثر . لو قلنا ان بالامكان جمع اجزاء لا عِداد لها في جسم واحد لنتج معنا ان اجساماً غير متناهية تنتج جسماً متناهياً ، وهذا محال .

(ب) — نفي الخلاء . لو كان « الخلاء » شيئاً لكان له حجم ، ولاحتاج الى خلاء آخر يُوجد فيه . ثم يحتاج هذا الخلا الآخر الى خلاء جديد . . . وهكذا الى ما لا نهاية ، وهذا مستحيل .

(ج) — نفي صدق الحواس . لو شهدنا مُدّاً من القمح يندفق لسمعنا له صوتاً عالياً . هذا الصوت العالي يجب ان يكون مجموع اصوات حباته . ولكن بما ان كل حبة وحدها ـ اذا اندفقت ـ لا صوت لها ، فالمد كله لا صوت له . والذي نسمعه نحن خداع من سمعنا فقط .

(د) — نفي الحركة . ولما نفى زينون الخلاء نفى معه الحركة واتي بالامثلة الطريقة التالية :

(١) انك لاتستطيع ان تجتاز عدداً غير متناه من النقط في زمن متناه : كل خط مؤلف من نقط غير متناهية ، فالانتقال من واحدة الى واحدة لا يمكن ان يتم في زمن متناه ، بل لا يمكن ان يتم .

وكذلك الحركة لا يمكن ان تكون قد بدأت : ان الجسم لا يمكن ان ينتقل من مكان ما الا بعد ان يكون قد انتقل اليه من مكان آخر ، وهكذا الى ما لا نهاية ، فلا يمكن اذن ان يكون الجسم هادئاً ثم يبدأ حركته .

(٢) ان آخيل (العدّاء اليوناني المشهور) لا يمكن ان يُدرك السلحفاةَ : تترك السلحفاة لتقطع مسافة ما : اب ، فاذا وصلت الى ب طلبنا من آخيل ان يلحقها الى ب . فاذا وصل هو الى ب تكون هي قدا انتقلت الى ج . فيعود آخيل

الى اللحاق بها الى ج من جديد ، فتكون هي في هذه الاثناء قــد انتقلت الى د ، وهلمجراً .

(٣) ان السهم المنطلق ثابت في مكانه لا يتحرك : اذا اعتبرنا كل لحظـة وحدة قائمة بنفسها ، ادركنا ان السهم يكون في هذه اللحظة نفسها ، في مكان معين . فهو اذن في كل لحظة وحدها غير متحرك ، فهو اذن غير متحرك (ان الصور المفردة تظهر على شريط الفلم السينمائي ثابتة) .

مالیسوس عاش مالیسوس في القرن الخامس ق. م. وكان آخر ممثل للمذهب الايلي ، ولكنه خالف الايليين في اشياء قليلة .

العـالم عنده غـير محدود ولا متناه (بخلاف ما قال برمينيذس) . ولو كان العـالم محدوداً لامكن ان يكون ثمت عالمان او اكثر ، ولوجب ان يكون بينها حدود . وهذا يمنع من ان يكون الوجود « وحدة » . ولما كان الوجود عنده غير محدود فانه ليس بجسم وليس قابلاً للتجزوء . والوجود غير متأثر بشيء من خارجه لأن المتأثر يتغير ، والمتغير لا يكون خالداً .

٤ ــ الفَلَاسِفَةُ الطَبِيعِيُّونَ المُحْدَثُونَ

قال هؤلاء مع الايليين ان «المادة» لا تتبدل ونَفَوْا النشوء والعدم المطلقين ، بل جعلوا التبدل قاصراً على صور الاجسام الجزئية الحادثة في عالمنا . ولكنهم خالفوهم ايضاً حينما قالوا بتعدد اشكال هذه المادة . ثم ان نسبوا نشوء الاجسام الى افتراق اجزاء المادة او اجتماعها .

ويحسن ان نقول ان اصحاب هذا المذهب قد انتقلوا من ايطالية الى اليونان

الطبقة الاولى : القائلون بالتحلل والتركيب في عالم المــادة

ان ابرز ما عند اهل هذه الطبقة انهم اعتبروا المادة متعددة الاشكال والانواع

وتكلموا على الُجزيئات (الدقائق البالغة في الصغر من كل مادة) لا على الذرات .

انبذقليس كان مولد انبذقليس في مدينة اكراغاس بجزيرة صقلية في امرة غنية تنتسب الى حزب ديمقراطي . ولكن العامة الذين خدمهم انبذقليس أساءوا معاملته فهاجر الى المورة (جنوبي اليونان) وهنالك توفي غير متجاوز ستين عاماً (٤٨٣ – ٤٢٣ ق . م). ولأنبذقلس كتابان أحدهما « كتاب في ما بعد الطبيعة » وهو كتاب فلسفي طبيعي ؛ ثم « كتاب الميامر » ، وهو شعر في الاصلاح الديني والاخلاق ، وفيه يقول بالتناسخ وبالزهد . ويظهر ان الكتاب الاول كان للخاصة ، اما الثاني فكان للعامة . وكان انبذقليس طبيباً وسياسياً وخطيباً وشاعراً وفيلسوفاً ، وله علم بالسحر .

اما فلسفته فتدور حول النقاط التالية :

١ – العناصر الاربعة – كان كل فيلسوف ايوني قدقال بعنصر واحد في العالم ، اما انبذقليس فجمعها وقال ان « العالم مركب من الاسطقسات (العناصر) الاربعة ، فانه ليس وراءها شيء ابسط منها ، وهي الماء والهواء والتراب والنار (الشهرستاني ٢ : ١٧١) . ولهذه العناصر صفات خاصة بها ثابتة لا تتبدل ولا تندثر ولا يستحيل بعضها الى بعض ، ومنها تتركب الاجسام كلها بالتحلل والتركب وبالظهور والكمون (اي ان بعض الصفات تظهر في بعض الاجسام وتختفي في بعضها) .

وهكذا يكون انبذقليس قد نفى الكون والفساد والاستحالة والنمو .

٢ – المحبة والغلبة . اما الذي يجمع بعض العناصر الى بعض حتى « تظهر » الاجسام التي في عالمنا فالمحبة ، واما الذي يفرقها حتى تندثر صورها فالغلبة او البغضاء :

في البدء كانت العناصر ممتزجة امتزاجاً كاملاً له شكل الكرة ، اذ كانت المحبة

مسيطرة فكان الوجود «الوهية سعيدة» ، ولكن لم يكن ثمت اجسام جزئية : شجر ، جبال ، الخ . بعدئذ تدخلت الغلبة ، فما زالت تفرق هذه العناصر حتى وصلت بها الى درجة يمكن معها ان تظهر الاجسام الجزئية . ثم زاد التفريق حتى عاد كل شيء فوضى فاختفت صورة العالم . حينئذ عادت المحبة من جديد واخذت ترتب ذرات المواد حتى ظهر عالمنا هنا مرة ثانية . ثم ما زال الترتيب يستمر ويرقى حتى كمل الامتزاج فحدثت صورة عالمنا وعاد الوجود الوهية سعيدة . وهكذا دواليك.

٣ — صورة العالم . ليس لأنبذقليس في ذلك من جديد الا قوله ان النور يقضي وقتاً ما ليقطع المسافة التي يسير فيها.

٤ — الحياة العضوية . نشأت من التراب . نشأ النبات اولاً ثم الحيوان لقد وجدت في اول الامر اعضاء حيوانية مستقلة : آذان ـ أرجل ـ ايدٍ ـ رؤوس الخ . . . ثم اخذ بعض هذه يلتصق ببعض اتفاقاً فتظهر مثلا رؤوس ثيران على اجساد بشر . ولكن هذه لم تصلح للحياة فتفرقت ، واخيراً حدثت انواع الحيوان الصالحة للحياة ثم تكاثرت بالتوالد .

٥ — الحواس وقواها . ينفلت من الاجسام ذرات (١) تدخل من مسامّنا فنشعر نحن بها ، فاذا دخلت في العين ابصرناها . . . الخ . اما الصوت فيحدث من مرور الهواء المتحرك في مدخل الاذن المتشكل على شكل طبلة . والقلب عند انبذقليس مركز العقل .

٦ — النفس . هنالك نفس كلية تشمل الطبيعة كلها ، ونفس جزئية هي نفس الافراد ، والنفوس الجزئية اجزاء من النفس الكلية ، كنور الشمس المنقسم في الغرف المتعددة . وحينما تتصل النفس بجسد تطمئن الى اللذات الحسية وتبتعد عن عالم الالوهية حيث كانت من قبل ، فتتدنس وتتمرد . حينئذ تُهبط اليها النفس الكلية جزءاً اعلى شرفاً منها فيهديها ويزكيها . هذا الجزء هو النبوة .

---

(١) الذرات عند انبذقليس اجزاء صغيرة جدا ولكن لها شكل الاجسام التي تفلت منها .

ومع ان هذا القول بعيد عن انبذقليس ، فانه منسوب اليه وقد ترك اثراً على فلسفات ابن سينا واخوان الصفا والعلاف المتكلم .

٧ — التناسخ . ومن ارتكب جريمة عاقبته الالهه بان تقلّبه في اجسام مختلفة في البشر والسمك والغابة والطير . ولذلك نهى انبذقليس عن أكل اللحم حتى لا يأكل احدنا أسلافه.

٨ — آراؤه الدينية والالهية. كان انبذقليس وثني المعتقد يرى ان الطبيعة حية، فاعتقد ان العناصر مساكن للالهة ، وقال ان للالهة اعماراً طويلة ولكنهم يموتون اخيراً ، ثم خلق لهم عالماً حسياً يعيشون فيه . ولكن يظهر انه تقرب بهذه الآراء للعامة، اما هو فاعتقد ان الالوهية كرة تامة ، وأن الله لا يشبه البشر ولا تدركه عقولهم .

وينسب الى انبذقليس انه قال : ان الله هو العلم المحض والارادة المحض والجود والعز الخ. ، ولكن هذه كلها هي هو نفسه . والله مُبدع (موجد) كل شيء على اعتبار انه علة لوجود العالم كما يقول علماء الكلام في الاسلام .

٩ — المعاد خاصة . اما المعاد خاصة فيجب ألا يفهم عند انبذقليس على انه حياة اخرى بعد الحياة الدنيا ، بل هو حال « الالوهية السعيدة » التي يصل اليها الوجود كله حينما تستولى عليه المحبة ويصبح كله كرة تامة كاملة .

انكساغوراس كان انكساغوراس (نحو ٤٩٩ — ٤٢٨ ق.م) من آسية الصغرى، ولد قرب ازمير . وهو اول من سكن اثينة من الفلاسفة ، وكان فيها صديقاً واستاذاً لحاكمها المشهور برقليس (١) الذي اراد ان يجعل عاصمته اثينة مركزاً للفن والثقافة .

ولكن لما زاد الاضطراب في اثينة ووفد اليها الطاعون ونشبت الحرب بينها

---

(1) Pericles (439 - 429 B. C.)

وبين اسبارطة واتهم العامة برقلس باحتجان الاموال وبانه يجمع حوله الملاحدة امثال انكساغوراس، . آثر انكساغوراس ان يغادر اثينة الى آسية الصغرى ، حيث توفي .

ومع ان انكساغوراس يشبه الايونيين بالقول بالعنصر الاول، ثم يشبه الايليين بانكاره للتبدل المطلق ، فانه اخذ بالتفسير العقلي الطبيعي فانكر ان تكون الشمس او القمر في الالهة واعلن ان الشمس ليست سوى جسم حجري مشتعل .

واما ابرز النواحي في فلسفة انكساغوراس فالتي تلي :

١ – العناصر غير متناهية في العدد . قال ان العناصر لاعداد لها ، وهي جُزيئات بالغة في الصغر ، من لحم ودم وشعر وذهب وحجر وخشب الخ، كل نوع منها محتفظ بخواصه لا ينقلب الى غيره . وقال ان الماء والتراب والهواء ليست عناصر بسيطة بل هى خزّانات لجميع انواع المادة .

٢ – لا نشوء ولا انعدام . ان نشوء الاشياء ليس سوى امتزاج عدد من الجزيئات على صور مخصوصة . وتختلف بعض الاشياء من بعض باختلاف مقادير هذه الجزيئات واصنافها وشكلها وبتكاثفها او تخللها ، كما تظهر السنبلة من الحبة الصغيرة . . . .

٣ – المبدأ العاقل والنفس . اما الذي ينظم العالم فهو النفس العاقلة او العقل . والنفس عنصر بسيط فيه علم وقدرة وغلبة على المادة . وذرات النفس ادق من ذرات جميع العناصر .

٤ – صورة العالم . كانت جزيئات العناصر مزيجاً من الفوضى فجاءت النفس العاقلة واثارت فيها حركة رحوية فتفرقت العناصر واجتمع الكثيف والبارد والرطب والمظلم فتشكلت ارضنا ، وكذلك اندفع اللطيف والحارّ والجافّ والمنير فتشكلت الاجرام السماوية . ان الارض لوح سابح في الفضاء . اما الشمس فجسم حجري مشتعل، وفي القمر سهول وجبال واودية، وهو مسكون

كالارض ويستمد نوره من الشمس .

٥ — الحياة العضوية . نشأت الحياة على ارضنا من الطين والماء بفعل الحرارة من بذور مدفونة في التراب تساقطت على الارض مع تساقط الامطار . وفي جميع الاجسام العضوية ـ حتى النبات ـ نفوس . والنفس مادة دقيقة صافية كلما زادت جزيئاتها في حيوان زاد ذكاؤه . والانسان أذكى انواع الحيوان .

٦ — الحواس ونظرية المعرفة . رأى برمينيدس ان الانسان يَعرف بالعقل لأن الحواس مخدوعة ابداً بما يبدو لها من تبدل الوجود . وذكر أنبذقلس ان الانسان مركب من ماء وهواء وتراب ونار ، فهو يعرف النار بعنصر النار الذي فيه . . . ولكن انكساغوراس انكر ذلك كله واثبت المعرفة للحواس من طريق التضادّ ، وقال اذا لمست جسماً بيدك وهي حارة شعرتَ انه، بارد واذا لمست الجسم نفسه بيدك وهي باردة شعرت انه حار . فالحواس مؤتمنة في المعرفة ومن طريقها وحدها يعرف الانسان العالم المحيط به . وهكذا يكون انكساغوارس قد وضع الاساس الاول لنظرية المعرفة الصحيحة .

الطبقة الثانية : اصحاب المذهب الذري

قال هؤلاء بتركب الاجسام من ذرات غير قابلة للتجزؤ، لانها اذا تجزأت تفقد خاصتها كجزء من مادة معينة وتصبح جزءاً من مادة اخرى . ووجود الاجسام في العالم خاضع لقوانين طبيعية ودوافع آلية وليس له « غاية غير مادية » .

لوكيبوس الملطي لا نكاد نعرف من حياة لوكيبّوس (نحو ٥٠٠ ـ ٤٣٠ ق.م.) الا انه من الملطية وانه مؤسس المذهب الذري ، وهو استاذ ديمقراطيس اعظم ممثلي هذا المذهب .

وخطا لوكيبوس في الفلسفة المادية خطوات واسعة :

١ — الثنوية في الوجود. عارض لوكيبوس الايليين وقال ان الخلاء موجود

كالملاء ، وكلاهما حقيقي في وجوده. ثم قال ان الوجود نوعان: مادة تملأ مكاناً ، ومكان لا مادة فيه .

٢ — الفلسفة المادية . قال ان كل شيء يحدث بسبب (مادي) ، وانكر السبب الغائي (او الحكمة والمغزي الروحي) ، وجحد خلود النفس .

٣ — نظرية الذرة = الجزء الذي لا يتجزأ . ان في الوجود نوعاً واحداً من المادة في شكل ذرات بالغة في الصغر لا يمكن ان تنقسم او تتجزأ . من هذا النوع الواحد من الذرات تتألف جميع الاجسام في عالمنا ولكن على اشكال مختلفة :

ان كل جسم يختلف من سائر الاجسام في عدد ذراته وفي ترتيبها ، والذرة لا خاصة لها ، بل تكتسب خاصتها من اجتماعها مع أمثالها في الاشكال المختلفة .

ديمقراطيس ولد ديمقراطيس في أبديرة على شاطىء ثراقية الغربية من بحر ايجة . كان غنياً فسافر كثيراً وزار مصر وبابل وفارس . وقد انصرف عن الملك الى الفلسفة ، وعاش نحو تسعين سنة (٤٦٠ — ٣٧٠ ق. م.) وهو تلميذ لوبكبوس .

واسلوب ديمقراطيس فخم رائق ممزوج بالشعر احياناً . وله كتب كثيرة في موضوعات مختلفة .

واعظم وجوه فلسفته توسعه في الذرة والكلام على تركيب الاجسام:

١ — الذرة وتركيب الاجسام . قال ديمقراطيس بانحلال الاجسام الى جزء لا يتجزأ (القفطي ١٧٢) . والذرة او الجزء الذي لا يتجزأ او الجوهر الفرد — كما عرف أيضاً في الفلسفة الاسلامية نوع واحد في مادتها ولكنها تختلف في اربعة وجوه : في الشكل والوضع والترتيب والحجم . ولنضرب لك على ذلك مثلاً من الابجدية العربية (شبه ديمقراطيس الذرات باحرف يونانية) : ان الحرفين أ — ج مختلفان في الشكل ، وان المجموعين أ ج — ج أ مختلفان في الترتيب . واما الشكلان

ما ـ م فمختلفان في الوضع . وكذلك حجم الذرات مختلف ايضاً ، والكبير منها اثقل من الصغير .

وللذرات اشكال كثيرة ، فمنها ما هو على شكل السنارة او المنجل ، ومنها المجوّف والمحدّب والمكوّر ، وبفضل اختلافها في الشكل تتماسك . وينشأ الطعْم الحلو مثلاً من ذرات مكورة ملساء ، اما الطعم الحريف فناجم عن ذرات محددة .

والذرات غير ساكنة في اماكنها بل متحركة حركة ذاتية ، هذه الحركة هي التي تؤلف بين الذرات او تفرق بينها حتى تتألف الاجسام المختلفة .

٢ — الملاء والخلاء . لما قال ديمقراطيس بحركة الذرات افترض ان يكون هنالك خلاء لأن الحركة تقتضي فراغاً تحدث فيه . ثم ان الاختلاف في لطافة الاجسام وكثافتها لا يمكن ان يكون الا اذا كان ثمت درجات مختلفة في الفراغ بين ذرات الاجسام المختلفة (الفراغ بين ذرات الخشب اكثر من الفراغ بين ذرات الحديد . . . .) . وظن ديمقراطيس ان النمو انما هو تسرب الغذاء في الاماكن الفارغة من الجسم . واخيراً قال ان هنالك « تخللا » ، وذلك اننا اذا اتينا بوعاء فيه رماد او رمل او حجارة ، ثم صببنا فيه ماء مثلاً ، فان الماء يتسرب بين ذرات الرماد (بين جزئياته على الاصح) . ثم قال ان هذا الوعاء يستوعب حينئذ من الماء كالمقدار الذي يستوعبه فيما لو لم يكن فيه رماد .

٣ — صورة العالم . انعالمنا (نظامنا الشمسي) واحد من عوالم كثيرة اعظم منه اتساعاً واكثر تطوراً . وارضنا كانت في اول امرها متحركة ، حينما كانت صغيرة خفيفة . ثم اخذت حركتها تبطىء رويداً رويداً حتى هدأت .

٤ — الانسان عالم صغير . وتخيل ديمقراطيس ان الانسان « تقليد » للعالم ، انه صورة له ، او عالم صغير يضم في نفسه كل ما في العالم العظيم ولكن على شكل مصغر . وهكذا اصبح الانسان ذا اهمية في مقابل عالم الطبيعة .

الفصل الثالث

نضج الفلسفة اليونانية

زيادة الاهتمام بالانسان ـ محاولة ايجاد نظام شامل

*

ما كاد القرن الخامس ق. م. ينتصف حتى كانت الفلسفة اليونانية قد قاربت نضجها بعد أن ترددت فيها الآراء قرنين كاملين من الدهر (نحو ٦٥٠ ـ ٤٥٠ ق.م.). ثم انبلج دور امتد نحو قرن ونصف قرن (٤٥٠ ـ ٣٠٠ ق. م.) بلغ التفكير اليوناني في اثنائه الاوج واحاط بوجوه الحياة العقلية والاجتماعية من جميع نواحيها.

في هذا الدور اشتد اهتمام المفكرين بالانسان وباوجه الحياة الاجتماعية كالدولة والاسرة واللغة والتعليم، وحرص المفكرون على ان يسوقوا آراءهم في «نظامات شاملة» او ان يفرقوا نتاج التفكير والبحث «علوماً»: علم الحيوان، علم ما وراء الطبيعة الخ.

محنة الفلسفة اليونانية

السفسطائيون ـ الجدال والمغالطة ـ استغلال العلم

*

بعد ان ردّ اليونانيون الفرس عن بلادهم في اوائل القرن الخامس قبل الميلاد، وبعد ان ثارت الحرب زماناً بين أثينة وسبارطة اندفع الشبان نحو تلقي العلوم المختلفة. حينئذ نشأ جماعة من الانتهازيين ارادوا ان يستغلوا التعليم تكسباً للمال، سموا انفسهم سفسطائيين (الحكماء) تشبهاً برجال كانوا من قبل قد انصرفوا الى التعليم حباً بنشر العلم والحكمة.

ولقد صدف هؤلاء عن تعليم العلوم الطبيعية والرياضية وعن المناقشات المنطقية الى الجدال وتناول الموضوعات التي يمكن ان تعالج على اساس شخصي أو تحوّر حسب الملابسات والمناسبات . وكان هؤلاء السفسطائيون يتنافسون في سبيل المال فيعلمون كل شاب ما يميل اليه حتى يبتزوا منه ما يشاءون ، فاصبح التعليم مهنة تثير الاشمئزاز في نفوس العقلاء . وفي ايام السفسطائيين كانت اثينة مركز الحركة الفكرية في اليونان .

ومن رؤوس المواضيع عند السفسطائيين :

أ — الخطابة والبلاغة واثرهما في المجموع وفي التفكير ، فقد اخذ الناس يتعلمونها على انها من موضوعات التعليم .

ب — الاهتمام بنشأة الجماعات الانسانية : الامة ، الدولة ، الامرة .

ج — الطبيعة (في الانسان) وقوتها : ان ما تواضع عليه الناس (اي اتفقوا عليه) لا يمكن ان يبدّل شيئاً مما تتطلبه الطبيعة التي لا تعرف قانوناً وضعياً — الزنيم (المولود من زواج غير شرعي) يشينه اسمه ، اما الطبيعة فواحدة — العبد يشينه اسمه ، اما فيما عدا ذلك فالعبد الشريف لا يقل عن الانسان الحر .

د — نشأة اللغة . بحثوا في اللغة فقالوا : أوضعية هي (توقيفية : اي من وضع البشر مرة واحدة) ام طبيعية (اي نشأت وتطورت حسب حاجة البشر تدريجاً) ؟ .

هـ — التربية . هل التربية وراثة اجتماعية (تقليد وقدوة) ام مولودة (مغروزة في الطبيعة منذ الولادة) ؟ .

ومع ان السفسطائيين كانوا محنة للفلسفة فانهم قد افادوا المجتمع في انهم اثاروا في نفوس الشبان بعض الرغبة في طلب العلم .

وسنمر نحن هنا بثلاثة من اعلام السفسطائيين ، ذلك لأن السفسطة — كمذهب مستقل — كانت مفقودة الاثر في الفلسفة الاسلامية ، وان كان علماء الكلام قد

استفادوا من «اساليب» السفسطائيين ، حتى قال ابن رشد (تهافت التهافت ٥٤١ ـ ٥٤٢) عن المتكلمين انهم جاءوا بالاقاويل المموهة وانكروا الضرورات اللازمة بما هو « تبحرّ في رأي السفسطائيين ، فلا معنى له » .

بروثاغوراس ولد بروثاغوراس في ابديرة وبلغ اشدّه نحو عام ٤٤٤ ق. م. وعلم الخطابة في كثير من المدن اليونانية. وقد اتهم بالالحاد وفر من خوف الموت نحو صقلية، ولكنه غرق في اثناء فراره .

وبنى بروثاغوراس آراءه على الاساس الآتي :

« ان الانسان هو مقياس قيم الاشياء » : ان قيمة كل شيء نسبية بالاضافة الى الانسان نفسه ، فليس ثمّ شيء خير في نفسه اوشر في نفسه ، وانما هو خير او شر وظلم او عدل بالاضافة الى كل انسان بمفرده .

واما رأيه الذي حمل الناس على ان يرموه بالالحاد فهو :« اما فيما يتعلق بالآلهة فلا استطيع ان اقول انهم موجودون ولا انهم غير موجودين ، ذلك لأن الموضوع نفسه غامض والحياة قصيرة لا تكفي للبحث في هذه المعضلة » . وهكذا لم ينكر بروثاغوراس وجود الآلهة ، ولكنه اعلن عجزه عن اثبات وجودهم بالدليل العقلي .

ومن اسس فلسفة بروثاغوراس الاجتماعية (والحقوقية) قوله : ان العقاب للردع لا للانتقام . وبروثاغوراس اول من بدأ البحث في النحو ، وهو الذي سمى ابوابه ، ولا نزال نحن نقول ان الكلمة ثلاثة اقسام : اسم وفعل وحرف كما ذكر بروثاغوراس .

غورجياس ولد غورجياس في صقلية وجاء عام ٤٢٧ ق. م. رسولا الى اثينة . وكان بارعاً في الخطابة براق الاسلوب يطوف ليحث قومه اليونانيين على ان يطّرحوا العداوة فيما بينهم جانباً وان يقفوا صفاً برصوصاً في وجه البرابرة (من ليسوا يونانيين) .

اما آراؤه فكانت هدامة كثيرة التشكيك. وزبدة تفلسفه ثلاث جمل قصار : (أ) ليس ثمت شيء ؛ (ب) ولو كان ثمت شيء لما قُدِرَ لنا ان نعرفه حق معرفته ؛ (ج) ولو كان ثمت شيء وقُدِرَ لنا ان نعرفه لما امكن ان نهب معرفته للآخرين .

بروديكوس كان بروديكوس متشائماً ، ولكن تشاؤمه لم يحمله على الاستسلام للحزن ولا على الزهد في العالم، بل خلق في نفسه قوة وعزيمة. ولقد حاول التغلب على الخوف من الموت فكان يقول : ما دمت انا موجوداً فليس الموت موجوداً ، فاذا وُجِدَ الموت لا أشعر به لانني لا اكون حينئذ موجوداً .

ولبروديكوس في الآلهة رأي جريء انه يقول : ان ما يفيد الناس يعبده الناس ، ولذلك جعلوا الشمس والقمر والنار والانهار وانواع الطعام والذهب آلهة لهم من دون الله.

ذُرْوَةُ الفَلسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ

الفلسفة المدنية (الانسانية) — تفريع العلوم — النظام الشامل — النفس والعقل

*

مثّل هذا الدور ثلاثة نفر يمثلون ثلاثة اجيال : سقراط وتلميذه افلاطون ، ثم ارسطو تلميذ افلاطون . ولقد نعم العالم في حياة هؤلاء ثم بعد موتهم باعظم ما وصل اليه العقل البشري من التفكير النظري .

سقراط الحكيم

آخر السفسطائيين — رفع شأن الفلسفة — الاسلوب السقراطي

سقراط من السفسطائيين ، ولكن بما انه قد نقم عليهم ورفع الفلسفة عن المستوى الذي انحدروا هم بها اليه فقد وجب ان نعده في صف افلاطون وارسطو

لاثره فيها ولاتجاهه الصحيح في التفكير .

كان سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) ابن بنّاء من سكان أثينة وكان قوي الجسد حاد الذهن ولكنه قبيح المنظر ، شُغف من اول امره بالحكمة . واتفق ان تزوج امرأة فظة فلم يلبث ان القى عن عاتقه امر الاهتمام باسرته وانصرف الى الفلسفة مرة واحدة . ولقد اعلن مخالفته لقومه اليونانيين في عبادة الاوثان فثوّورا عليه العامة ثم اخذوه بتهمة الالحاد. وشهد عليه قوم بانه افسد القول في آلهتهم فحكم عليه بالاعدام فشرب السم راضياً (راجع القفطي ١٩٨ وما بعدها) .

شارك سقراط السفسطائيين في انه وجّه كل اهتمامه الى « الانسان » والى المجادلة عن الآراء ، ولكنه خالفهم في غايتهم من الجدال ومن جعل قيم الاشياء نسبية . بل كان يتبع في مجادلاته المنطق ويستخرج الاسس الصحيحة والقواعد . ولقد عُرف اسلوبه في مجادلاته باسم « الاسلوب السقراطي » ، وهو يمتاز بخاصتين : اولاهما الرد على السؤال بسؤال من جنسه ليثير التفكير في السائل ؛ وثانيهما مزج الجدال بشيء من التهكم .

وسقراط لم يكتب فلسفته ولا عُرضت لنـــا آراؤه مستقلة ، ولكن المصدر الاعظم لآرائه كتب تلميذه افلاطون . ويبدو بجلاء ان افلاطون اجرى على لسان استاذه سقراط آراءً كثيرة تليق بعبقرية سقراط ولكنهـا ليست له بتفاصيلها على الاغلب .

١ — سبيل فلسفته . حرص سقراط على ان تبـدأ مجادلاته بالاستقراء (باستنتاج الآراء من الملابسات) وان تنتهي بوضع حدّ (تعريف) للمشاكل الاجتماعية كالعدل والشجاعة والحرية وماالبها، فنعرف بذلك جوهر هذه المشاكل .

وهاك قطعة من جمهورية افلاطون تمثل سبيل سقراط في مناقشاته وتمثل آراءه الى حد كبير أيضاً :

سقراط : ان الخطه المثلى في امر اقتناء الازواج والاولاد تقوم على اتباعهم الدوافع

الاصلية . وكان غرض نظريتنا ان نجعل رجالنا كرعاة قطيع .

غلوكن : نعم .

س : فلنسن قوانين لتكثير النوع وتربية الصغار، ثم لننظر امناسبة هي ام لا؟

غ : ماذا تعني ؟

س : اتظن ان زوجات كلاب الرعاة صالحة لمشاطرة ذكورها حراسة القطيع والصيد ومشاركتها في كل واجباتها او انها يجب ان تلزم اماكنها لأنها غير قادة على ذلك لاشتغالها بولادة الاجرية وتربيتها .

غ : نتنظر انها تشاطر الذكور كل شيء ؛ انما تعاملها معاملة الضعيف وتعامل ذكورها معاملة القوي .

س : افيمكن استخدام الحيوانات في عمل واحد ما لم تستعدّ له استعداداً واحداً تدريباً وتهذيباً ؟ غ : لا

س : فاذا رمنا استخدام النساء في عمل الرجال وجب تهذيبهن كالرجال .

غ : وجب

س : وقد خولنا الرجال تعلم الموسيقى والجمناستك . غ : نعم .

س : فيجب تهذيبهن في الفنين كالرجال مع التدريب العسكري .

غ : ذلك ينتج طبعا عما قلته .

س : وقد يلوح كثير من تفاصيل هذه القضية سخيفاً .

غ هكذا تلوح بلا شك .

س : الا يبعث على السخرية اشتراك النساء مع الذكور في مدارس الرياضة عاريات الابدان فتيات وطاعنات في السن — مع تغضّن اساريرهن وشناعة وجوههن .

غ : انهن يظهرن في الوقت الحاضر مزدرىً بهن .

س : حسناً ، لكن يجب الا نحفل بتهكم المتهكمين . غ : اصبت .

س : لنذكر هؤلاء المتهكمين انه الى عهد قريب كان تعري الرجال عيبا ومدعاة للهزؤ عند اليونانيين . كما هو اليوم عند اكثر البرابرة . . . . ولما اثبت الاختبار ان تجريد الجسم خير من ستره بطل الاستهزاء بالعارين في ميادين الرياضة . . .

٢ — فلسفته الاخلاقية . وكان اهم ما شغل سقراط البحث في الاخلاق . والاخلاق عنده من حيز العقل لا من حيز الدين . ومن المعرفة تنتج الفضيلة : فمن عرف الحق لم يظلم ، ومن رأى وجه الخير لم يقرب شراً ، ولا يمكن للانسان ان يسلك سلوكا يخالف رأيه (الصائب) . وقيل لسقراط يوماً ان نفراً متعلمين يأتون شروراً . فقال : ان علمهم ظن وليس ايقاناً . والفضائل عند سقراط قابلة للتعليم : يستطيع الانسان ان يتعلم الصدق والعدل والشجاعة وما اليها .

وهكذا نجد ان العلم والفضيلة تقودان الى السعادة . اما الشقاء فمقرون بالرذيلة والجهلة ضرورة .

افلاطون

الصورة والمادة وعالم المثل — النفس — الاخلاق — السياسة والدولة

افلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م .) من اسرة شريفة في اثينة «كان في اول امره شاعراً ثم عرف سقراط فكره الشعر واختص بالفلسفة» وبعد موت سقراط غادر افلاطون اثينة ثم حمله الاضطراب السياسي في اليونان كلها على ان يترك اثينه مرات اخرى زار في اثنائها مصر وايطالية وصقلية . ثم استقر نهائياً في اثينة حيث توفي .

مؤلفاته افلاطون مؤلف خصب ترك لنا كتباً كثيرة . ومع ذلك فقد نسب الناس اليه — حتى في زمن متقدم جداً — كتباً ليست له . ونحن نصف هنا بعض كتبه الصحيحة المشهورة (مرتبة حسب تاريخ تأليفها) :

أ — الدفاع . موجز لفلسفة سقراط ولموقف افلاطون نفسه من سقراط ، « وتبرئة » لسقراط مما نسب اليه اعداؤه وقتلوه به .

ب — بروثاغوراس . حرص افلاطون على عرض فلسفة استاذه الاخلاقية في محاورات مفردة . ومن اشهر هذه « بروثاغوراس » ، التي تنتهي الى ان جميع الفضائل قابلة للتعليم وان الفضائل كلها وحدة ، وان طبيعة الفضيلة انما هي في هذا النزاع بين العاطفة وبين المعرفة الصحيحة ، وان ثمّ مقياساً واحداً للسلوك الانساني : جلْب اللذة ودفع الالم . وهكذا لا يمكن لانسان عرف الخير حق معرفته ان يميل الى الشر ، فاذا ، فانما فعل ذلك لنقص في حسن المعرفة فقط .

ج — كتاب السياسة (المعروف عند المعاصرين بكتاب « الجمهورية » او « جمهورية افلاطون ») . يرسم افلاطون في كتاب السياسة صورة للمدينة (الدولة) المثلى،ويتكلم فيها على الفضائل التي تخلق «المواطن الصالح» في الدولة. ومع ان كتاب السياسة اجمع كتب افلاطون لآرائه ، ومع انه الف في عهد متطاول ، فانه يمثل افلاطون في دوْر الشباب والخيال والطموح ، يوم كانت غاية افلاطون ان « يثير البحوث » على طريقة استاذه سقراط من غير ان يصل من بحثها الى نتيجة فاصلة .

د — غورجياس . يحمل افلاطون في هذا الكتاب على البلاغة وعلى السفسطائيين ، لان خطبهم وحججهم تتأثر باحوالهم الشخصية الخاصة ولا تحاول البحث عن الحق والخير . ثم يحمل ايضاً على رجال السياسة في عصره من الذين يحكمون بالقوّة فيظلمون الضعفاء لانهم هم اقوياء فقط . ويعلن افلاطون هنا على لسان سقراط ان الانظلام (احتمال الظلم من الآخرين) خير من الظلم (للآخرين). وفي هذه المحاورة كلام على الحياة بعد الموت تأثر فيه افلاطون بفيثاغوراس .

ه — المائدة . هي محاورة يسوقها افلاطون على لسان ستة نفر يجتمعون حول مائدة ليبحثوا في الحب عموماً ، وفي ذلك الحب الذي كان يومذاك مستطيلاً في اليونان بين الرجال وبين الشبان ومن هم دونهم في السن . يرى افلاطون

ان النفوس تسعى الى السعادة : من اسباب هذه السعادة « الخلود » او الشعور بالخلود . من اجل ذلك يتزوج البشر حتى يخلفوا في هذه الدنيا نسلاً يحفظ ذكرهم من بعدهم . فالحب الذي تحدث منه الذرية سعادة ، ولكنه سعادة مقيدة بغاية معينة ، ثم هي مزيج من السعادة المادية والسعادة الروحية . وهكذا يرى افلاطون ان سعادةً روحيةً محضاً تنشأ من ميل النفس الى الشباب والرجال وتمثل الحب الذي لا غاية له الا في نفسه . فان الوالد مثلاً اذا قبّل ابنه والملك اذا عانق القائد الراجع ظافراً من الحرب فانما هما يمثلان في عملها هذا «الحب الذي لم يبق له غاية الا نفسه» . ثم يتوسع افلاطون فيرى السعادة تتمثل في صفات آخر غير الصفات التي يراها الوالد في ابنه والملك في قائده .

و — فيدون . يعالج افلاطون في فيدون خلود النفس (على لسان سقراط يوم وفاته) : ان الحياة كلها استعداد للموت ، ولذلك تسعى النفس حتى تتخلص من أسر الجسد .

ز — طيماوس . ان ابرز ما في هذه المحاورة « آراء افلاطون الطبيعية » في الفلك والعناصر ونشوء العالم وما اليها . ويعلن افلاطون ان المدينة المثلى (في كتاب السياسة) لا تتطور وتتحقق الا في عهد الهدوء (السلم) . وعلى هذا يعالج افلاطون هنا صلات الدولة بالدول التي حولها (الحروب) .

ح — النواميس . أدرك افلاطون ان « المدينة المثلى » التي تخيلها في كتاب السياسة لا يمكن ان تتحقق ، فكتب كتاب النواميس ليرسم لنا صورة « المدينة العملية » الممكنة في عالم لم يصبح اهله كلهم فلاسفة بعد . لقد بنى رأيه هذا على التطور التاريخي للدولة (في اليونان) ، فرأى ان الدولة الممكنة هي الدولة التي توجد لحكم جمهور العامة .

مقامه افلاطون مفكر عبقري عظيم متصف بذكاء نادر وخيال مبدع وفهم لمبادىء الوجود لم يقف في فترة من فترات حياته ، من اجل ذلك كانت آراؤه

في تطور مستمر . ولقد يبدو مستغرباً اذا قلنا مع اوبرفيك ان دراسة فلسفة أفلاطون تكون اجدى اذ اعتبرنا مؤلفاته واحداً واحداً،واضربنا عن ان نتطلب لها كلها « نظاماً شاملاً » يجمعها في سلك واحد (١) .

ولقد عُرف افلاطون عند المتأخرين باسم « افلاطون الالهي » ذلك لأن اليونانيين في عصورهم الوسطى على الاغلب كانوا «يبالغون في افلاطون ويعظمونه ويقولون : كان مولده الهياً ... ويحكون في ذلك حكايات هي بالاسمار اشبه » (٢)

موجز فلسفة افلاطون فلسفة افلاطون مثالية حاول فيها ان يتخيل « نظاما » للوجود، وان يرد اعمال البشر وسلوكهم الى مقاييس من الخير والجمال: لقد اراد ان يري العالم كما يجب ان يكونَ لا كما هو فعلا ، وانتظر من البشر ان يسلكوا في الحياة الدنيا كما تقضي المبادىء المثلى (كأنهم في عالم امثل مجردون من عواطفهم ومعزولون عن بيئتهم) ، لا كما تملي عليهم حاجاتهم الطبيعية والاجتماعية) . ولا ريب في انـه حينما تكلم عن الناس قصد الفلاسفة الكاملين لا جمهور العـامة ولا خاصة العامة .

ومن اعظم خصائص افلاطون « الجدال المتسق» : اي طريقة البحث التي كان يتبعها في معالجة الموضوعات . ولكن هذه الطريقة لم تكن قد اصبحت مع افلاطون بعدُ « منطقاً » .

وبما ان هذه الدراسة ليست للفلسفة اليونانية كفلسفة يونانية ، بل للفلسفة اليونانية التي اتخذت طريقاً مخصوصاً الى العرب،فانني ساعالج وجوه فلسفة افلاطون على نسق يختلف قليـلاً من النسق الذي الفه مؤرخو الفلسفة :

١ — الصورة والمادة . كل شيء في العالم الذي نعيش فيه مؤلف مـن « صورة » ومن « مادة » : فالمادة هي الشيء القاسي الذي تتألف منه الاجسام

(1) Vgl . Ueberweg I 328

(٢) القفطي ١٩ .

المختلفة فالخشب مادة الطاولة والباب ، والطين مادة الابريق ، والقرميد والمرمر مادة ارض الغرفة والتمثال الخ . اما « الصورة » فهي الشكل الذي يخلق من المادة اجساماً مختلفة ، فالمادة في الطاولة والكرسي واحدة هي الخشب او الحديد ، ولكن الصورة مختلفة : انها في الكرسي غيرها في الباب ، وهي في الباب مخالفة للطاولة . ولا بد من القول بان الصورة والمادة تكونان (في عالمنا) دائماً متلازمتين لا تفترقان ابداً ، فلا نستطيع ان نجد مادة ما لا صورة لها ، كما اننا لا نستطيع ان نرى صورة اذا لم تكن مفرغة على المادة. على اننا نستطيع ان نتخيّل افتراق الصورة من المادة تخيّلا .

٢ — الملأ الاعلى والعالم الواقع . يرى افلاطون ان الصور في عالمنا متلبّسة بالمادة ابداً . ولكنه يعتقد ان جميع الصور الراهنة (الموجودة في عالمنا فعلاً) وجميع الصور الممكنة (التي يمكن ان تنشأ في عالمنا في المستقبل) هي موجودة فعلاً منذ الازل في الملأ الاعلى ، في العالم الآلهي . هذه الصور كلها خالصة هنالك من المادة ، وهي كلها على اتم شكل ممكن لها : هنالك صورة مثلى للشجرة وصورة مثلى للبيت وصورة مثلى للكتاب وصورة مثلى للسيارة او الطيارة او الابريق . هذه الصور المثلى تدعى في فلسفة افلاطون « المُثُل » .

وكذلك كانت « المادة الاولى » او الهيولى في اول امرها مجردة (في عالمنا نحن) من كل صورة ، ولذلك لم يكن في اول الامر في عالمنا شجر ولا بيوت ولا كتب ولا سيارات ولا طيارات ولا اباريق الخ ، أي لم يكن في عالمنا « اجسامٌ » قط .

فلما أخذت الصور تفيض على المادة بدأ تشكلُ الاجسام في عالمنا ، وهكذا نشأ « العالم الواقع » الذي نعيش فيه . غير ان المادة لم تكن طيّعة تماماً للصور ، فاصبحت صور الاجسام في العالم الواقع اقل كمالاً منها (اي من تلك الصورة نفسها) حينما كانت مجردة من المادة في الملأ الاعلى . لذلك سمى افلاطون الملأ الاعلى « عالم المُثُل » ، وهو عنده العالم الحقيقي ، او الوجود الحقيقي .

اما عالمنا الواقع الذي نعيش فيه فقد حدث بعد ان القت الالوهيه على المادة اجمل شكل ممكن ، وهو الشكل الكروي . الا ان هـذا العالم لم يمكن ان يكون اجمل مما هو عليه ولا اكمل، ذلك لأن المادة ناقصة في اصلها ولذلك تمنع ان ان يكون العالم الواقع تاماً كاملاً . ومع ذلك فلم يكن بالامكان ابدع مما كان. فعالمنا الواقع « اذن عالمُ النقص » : ان الاجسام التي فيه « تقليد » لما في الملأ الاعلى من الصور ، انها « نسخ ثانية » عن الصور المثلى .

وهنا وقف افلاطون امام مشكلة : اذا كانت الصور في الملأ الاعلى مجردة من كل مادة، واذا كانت المادة في اول امرها فوضى لا صورة معينة لها ، فكيف امكن أن تتصل الصور المطلقة بالمادة المطلقـة حتى تنشأ الاجسام ؟ لقد افترض افلاطون بين عالم الصور المطلقة وبين عالم المادة المطلقة عالماً وسطاً ، من اعلاه صور مطلقة (مجردة المادة) ، ومن اسفله مادة مطلقة (لا صورة معينة لهـا) ولكن ذلك لم يحـلّ المشكلة ، ذلك لأن افلاطون قـد تخيل في الحقيقة عالماً جديداً كالعالم الاول ، من اعلاه صور مطلقة ومن اسفله مادة مطلقة فقصر بذلك المسافة بين عالم الصور وعالم المادة ، ولكن لم يستطع ان يصل بينهما . حينئذ انطلق يزيد العوالم واحداً بعد واحد حتى كادت المسافة ان تتلاشى وامكنه ان يسهل تلبس المادة بالصور، ولكن بعد ان تخيل عوالم لا عِدادَ لها .

٤ — النفس وهبوطها . وبحث النفس غامض عن افلاطون ايضاً :

كان اولَ ما خلقته الالوهية « النفسُ الكلية » ، وهي كانت يحتل مركزاً بين الملاء الاعلى وبين عالمنا نحن . والنفس الكلية هي المصدر الاقصى والسبب لكل حركة ولكل حياة في عالمنا. وكذلك «النفوس الجزئية» (النفوس المفردة ، اي نفوس البشر) فانها ايضاً مرتّبة بين عالم المثل وبين العالم الحسي الواقع ، متصلة بهما كليهما .

هذه النفوس تتأمل دائماً في الالوهية ، فاذا اتفق ان « نفسا » منها غفلت

عن تأملها ابتعدت عن الالوهية. ولا تزال تبتعد حتى تسقط من الملأ الاعلى وتدخل في جسد . فاذا مات الجسد رجعت النفس الى مقرها (بعد ان تكون قد عوقبت على غفلتها بتقلبها في جسدٍ ما) .

ثم قد يتفق ان تهبط النفس ذاتها مرة اخرى او اكثر ، فينتج من هذا عند افلاطون ان النفس الواحدة تدخل في اجساد متعددة ، وهكذا نرى افلاطون يؤمن بالتناسخ . وهذا يعني ايضاً ان النفس خالدة .

ويرى افلاطون ان في كل شيء نفوساً ، في النبات وفي العناصر (الماء والهواء . . . .) وفي النجوم والكواكب .

٥ – التذكر ونظرية المعرفة . حينما تكون النفس في الملأ الأعلى تكون مطلعة على الصور المثلى جميعها ، فاذا هبطت واتصلت بالجسد نسيت ما كانت قد عرفته . ولكن كلما وقع نظر الانسان على شيء تتذكر نفسه انها كانت قد رأت صورة هذا الشيء في الملاء الاعلى ، فتعرفه . فنظرية المعرفة عند افلاطون اذن مبنية على « التذكر » اي عِرفان صلة الاجسام التي تراها في عالمنا هذا بالصور المثلى التي كانت قد رأتها في الملأ الاعلى .

٦ – السياسه . تأثر افلاطون حينما تعرض للسياسة بالبيئة اليونانية ، لقد اراد ان يتخيل صورة مثلى للمدينة (للدولة – ذلك لأن اليونان كانت في ذلك الحين مقسمة مدناً مستقلة : اثينة ، سبارطة الخ . . .) . كانت المدينة المثلى في رأيه تضم سكاناً يتراوح عددهم بين اربعة آلاف وستة آلاف ، ينقسمون ثلاث طبقات :

(أ) – الطبقة الاولى : الحكام .

(ب) – الطبقة الثانية : الحُماة (الجند) .

(ج) – الطبقة الثالثة : اصحاب الاعمال .

وهكذا نجد ان افلاطون قد عالج هنا المجتمع لا الدولة (الهيأة الحاكمة) فقط.

اما الحكام فهم « الفلاسفة » الذين ولد معهم الاستعداد للحكمة والحكم، ثم أعِدّوا اعداداً مخصوصاً ليتولوا حكم المدينة واحداً بعد واحد. ولا يسمح لاحد هؤلاء الفلاسفة المُعَدّين ان يصبح حاكماً الا اذا جاوز الستين من عمره، وحينئذ يصبح مطلق الحكم والتصرف، ويُرفع عن عاتقه امر الاهتمام بالاسرة والاولاد، فكل بيت في المدينة بيته: فيه يأكل ويشرب وينام ويطلب السعادة اذا شاءها.

واما الحُماة او المحاربون فهم الذين يدفعون العدو الخارجي عن المدينة (لأن المدينة مدينة فلاسفة في الدرجة الاولى فلا خلافَ داخلياً فيها)، وهم معسكرون حول المدينة. وقد رفع عن عاتق هؤلاء ايضاً السعي في سبيل العيش، ومنعوا من انشاء الاسرة حتى لا يكونوا هم في مكان وأسرهم في مكان آخر، وحتى لا ينشأ بينهم غَيْرة تصرفهم عن واجب الدفاع عن المدينة. من اجل ذلك حرص افلاطون على ان يصحب هؤلاء الحُماةَ في مراكزهم حول المدينة نساءٌ يُنفِّسن عنهم من غير ان يكنّ في عصمة احدٍ منهم حتى لا تنشأ أُسرٌ خاصة فتلقيَ على عاتق الحماة واجباتٍ جديدةً وتوفرَ (تملأ) قلوبهم غَيرةً وهمّاً.

واما اصحاب الاعمال فهم الزُرّاع والصناع والتجار الذين يقدمون للحاكم وللحماة سبل العيش المادي من مطعم ومسكن وملْبس ومال. ولكن بما ان هؤلاء ليسوا فلاسفة ولا يمكن ان يهتموا باعمالهم اهتماماً صحيحاً الا اذا شعر كل واحد منهم انه ربّ اسرته ومالك ثروته فقد سمح لهم افلاطون بان ينشئوا أسراً خاصة ويجمعوا الثروات. الا انهم لا يشتركون في الدفاع والحكم.

وهنالك طبقة تساهل افلاطون في قبولها، هي طبقة الارقاء، على شرط ان يكون الرقيق بربريا (غير يوناني).

ومن مستلزمات هذه الطبقات كلها «النسل». ولقد شرط افلاطون للنسل شروطاً هي، فوق صحة الجسد والعقل سنُ الاستيلاد. فان سنَ الاستيلاد للنساء بين العشرين والاربعين، اما للرجال فهي بين الخامسة والثلاثين والخامسة والخمسين. وجميع الاولاد الاصحاء الذين يولدون حسب هذه الشروط تربّيهم الدولة. اما

اذا اراد اثنان ان يتزوجا وينسلا ـ وهما لا يتمتعان باحد هذه الشروط ـ فان الدولة لا تساعدهما على تربية اولادهما .

ويتعلق بذلك ايضاً « المرأة » . يرى افلاطون ان المرأة عموماً اضعف من الرجل ، ولكن الفتاة اذا نالت عناية كالفتى اصبحت كالفتى تماماً ، وحينئذ يحق لها الانخراط في الجيش والتربع في مراتب الحكم .

٧ — الاخلاق . والاخلاق عند افلاطون قسمان : قسم يتعلق بالفرد وقسم يتعلق بصلة الفرد بالمجموع .

(أ) اما الاخلاق الفردية فهي السعي الى تحقيق الخير ، فالخير اسمى الفكر وهو الغاية من كل سلوك انساني . والاخلاق عنده ايضاً تحمل طابعاً بديعياً — مقصوداً لنفسه ومدركاً بالذوق — لا يقرّر عن طريق الحس بل عن طريق العقل ، ذلك لأن الخير « مطلق » غير موجود في عالم الحس . اما ما مال اليه الانسان بدافع من حسٍّ فلا قيمة له ، بل هو امر محتقر .

والفضيلة عند افلاطون توسط بين نقيضين (نقيصتين، رذيلتين) ، فالجود مثلاً «توسّط » بين البخل والاسراف . اما الفضائل الاساسية فهي اربع : الحكمة والشجاعة والحلم (ضبط النفس) والعدل .

(ب) ويبدو لنا ان الاخلاق عند افلاطون ليس الفردَ غايتُها بل المجموع . ان افلاطون يريد ان ينشىء مواطنا صالحاً في « مدينته » . اما الصلة بين اخلاق الفرد وبين المدينة (الدولة) فراجع عنده الى ان المدينة انسان كبير . وفي الانسان ثلاث قوى تقابل طبقات المدينة الثلاث :

(١) القوة العاقلة — ويقابلها في المدينة نخبة السكان العاقلين من الفلاسفة ، وهم الحكام .

(٢) الارادة — ويقابلها في المدينة الحماة .

(٣) الرغبة — ويقابلها عامة الشعب .

٨ – الالهيات . لم يعالج افلاطون الالهيات في موضع خاص ولا هو عالجها بوضوح . ولكن يبدو من كتبه انه كان يؤمن بآلهة اليونان المتعددة ، ولكنه على كل حال كان ينكر التشبيه (نسبة صفات البشر الى الآلهة : الطعام والزواج والقتال ...) وينكر الخرافات التي كان العامة يأخذون بها . غير ان النجوم عنده لا تزال آلهة ، حتى الهواء والعناصر ومظاهر الطبيعة لا تزال مملوءة بالآلهة والارواح .

وكذلك رأيه في « الالوهية » ، مع انها تتفق عنده مع الكمال والخير والجمال ، ليس واضحاً . وعلى هذا نجد هنا ايضاً ان لقب « افلاطون الآلهي » لم يأت من صحة رأي افلاطون في الالوهية بل من الخرافة التي اشرنا اليها في مطلع كلامنا على هذا المفكر العظيم حينما زعم قوم من المتأخرين ان له نسباً الهياً .

ارسطوطاليس

اشتهر ارسطوطاليس او ارسطو (نحو ٣٦٧ – ٣٢٢ ق . م .) بانه « حكيم اليونان » من اهل اسطاغيرا في ثراقية . وكان والده نيقوماخس طبيباً فيثاغورايّ المذهب فيما قبل (طبقات ١ : ٥٦ ثم ٥٤) . ولما صار لارسطو ثمانية عشر عاماً اخذ يتلقى العلم على افلاطون ، ومكث في ذلك عشرين عاماً .

وبعد موت افلاطون ببضع سنوات ذهب الى البلاط المقدوني واصبح (٣٤٢ ق . م .) مؤدب الاسكندر بن فيلبس الذي اشتهر فيما بعد بالاسكندر المقدوني (الكبير) ذي القرنين . ولما اصبح الاسكندر ملكاً (٣٣٦ ق . م .) رجع ارسطو الى اسطاغيرا ثم الى اثينة واسس هنالك دار التعليم المنسوبة الى الفلاسفة المشائين (Peripatos) والتي لم تُعمَّر اكثر من اثني عشر عاماً .

وبعد موت الاسكندر وانقلاب الاثينيين على المقدونيين اتهم ارسطو بالالحاد فانسحب الى اسطاغيرا كيلا يصيبه ما اصاب سقراط (طبقات ١ : ٥٤) ، وهنالك توفي بعد ذلك بقليل .

مقامه ارسطو فيلسوف اليونان غير مُنازَع ، واعظم الفلاسفة باطلاق ، وكان افلاطون يسميه العقل (طبقات ١ : ٥٦) وهو جمّاعة مُحيط وبحاثة منظم ودقيق الملاحظة من الطبقة الاولى ، واليه يرجع الفضل في تنظيم الفلسفة اليونانية وتفريع العلوم منها وايجاد فن المنطق مرتباً منظماً . وكان ابن رشد يسميه « الحكيم » او « الحكيم الاول » (تهافت التهافت ٥٨ ، ٣٢٥ الخ . . .) وعلى الرغم من اهتمام ارسطو بالناحية المدنية (الانسانية) من الفلسفة ، فان مجموع فلسفته مبني على « اتفاق العلل المادية في العالم الطبيعي » .

وكان ارسطو اشهر عند العرب من افلاطون ، ولكنّ آراءه لم تصل الى العرب خالصة ولا وصلت كلها ، وخصوصاً في ما يتعلق بالالهيات . اما في الطبيعات فكثير من آرائه استقر في نسيج الفلسفة الاسلامية .

مؤلفاته لارسطو في جميع العلوم كتب شريفة (قيّمة) عامة او خاصة من اشهرها :

أ — سمع الكيان ، ويتناول المبادىء في الوجود كالعنصر والصورة والعدم والزمان والمكان والخلاء والملاء وما لا نهاية له ... وهو تمهيد الى درس الفلسفة .

ب — كتاب السماء العالم — كتاب الكون والفساد — كتاب الآثار العُلوية .

ج — كتاب الحيوان — كتاب النبات .

د — كتاب النفس — كتاب الحس والمحسوس .

ه — كتاب ما بعد الطبيعة .

و — كتاب السياسة — كتاب الاخلاق .

ز — الاورغانون في صناعة المنطق : وضع ارسطو هذه الصناعة حتى سموه « المعلم الاول » و« صاحب المنطق» ، وبهذا يسميه الجاحظ في كتابه « الحيوان » على الاخص . وقد قال ارسطو عن هذا الكتاب كما يخبرنا ابن ابي اصيبعة

(طبقات ١ : ٥٧) : «واما صناعة المنطق وبناء السلوجسموس(١) فلم نجد لها فيما خلا اصلا متقدماً نبني عليه ، لكننا وقفنا على ذلك بعد الجهد الشديد والنصب الطويل . وهذه الصناعة — وان كنا نحن ابتدعناها واخترناها — فقد حصّنا جهتها ورمّمنا أصولها ....» .

موجز فلسفته ان فلسفة ارسطو تتناول جميع المعارف الانسانية التي كانت سائدة في زمنه ، وقد بلغ هو بتفكيره ذروة العبقرية البشرية واحاطت آراؤه باوسع مظاهر الوجود الطبيعي والمدني .

كانت فلسفة افلاطون « مُثلى » خيالية تبحث في « كيف يجب ان يكون الوجود » ، اما فلسفة ارسطو فهي واقعية تعالج الوجود على ما هو عليه فعلاً . وكان افلاطون يرى ان العالم الحقيقي هو عالم الصور المثلى ، اما عالمنا نحن فهو تقليد للعالم المطلق . ولكن ارسطو قال ان هناك عالماً واحداً ، هو عالمنا الذي نعيش فيه ، وهو العالم الحقيقي .

١ — المنطق . « المنطق نحوُ التفكير البشري » . لكل لغة من اللغات نحوٌ خاص مقيدةٌ به قواعدُها وشواردها ؛ اما التفكير فهو بشريّ عام بين الشعوب كلها ، وله « علم واحد » يضبطه ويقيده ، ذلك هو المنطق . فالمنطق اذن علمٌ غايته التمرن على التفكير (الصحيح) واكتشاف الخطأ في تفكير الآخرين.

ليس ارسطو مبتدع علم المنطق ولكنه مدوّنه وواضع قواعده ومنظمه ، ولقد سماه اورغانون (Organon) اي الآلة او الاداة . ويجدر بنا ان نعرف ان ارسطو لم يجعل المنطق « علماً شكلياً » لا علاقة بينه وبين ابحاثه ، كما اصبح هذا العلم فيما بعد ، بل جعل بين « شكل هذا العلم » وبين التفكير نسباً وصلة ، فاذا قاد الشكل المنطقي الى نتيجة لا يقبلها العقل ، اتبع ارسطو ما اوجب العقل وترك ما ادّى اليه شكل المنطق .

---

(١) Syllogismus القضية المنطقية المؤلفة من المقدمتين والنتيجة .

syllogism

Syllogisme: القياس

والاورغانون ثمانية ابواب (١) .

(أ) — المقولات (فاطيغورياس = Kategorias) وهي تدل على قوانين المفردات من المعقولات ، وعلى الالفاظ . والمقولات عشر ، اذا اردنا ان نعرف شيئاً ما هو عرضناه عليها ، فاذا عرفناها عرفناه ، وهي : الوجود (المادة : انسان، بيت شجرة) ـ الكمية (التحديد : حجمة ، اتساعه ، طوله) ـ النوع (وصفه: ازرق . . .) ـ النسبة (اضافته الى غيره : اكبر من هذا ، اجمل من تلك) ـ المكان (أين : في المدرسة ، على الشارع) ـ الزمان (متى : اليوم ، امس) ـ الفعل (العمل : يدرس ، يفلح) ـ البناء (وقوع الفعل عليه : يُقطع ، يُضرب) ـ الوضع (يجلس ، يستلقي) ـ الحالة (لابس ثيابه ، متقلد رمحه) .

(ب) — العبارة (باريمينياس) ، وفيه قوانين الالفاظ المركبة التي هي المعقولات المركبة من معقولين مفردين .

(ج) — القياس (انالوطيقا الاولى) للتمييز بين القياسات المشتركة . . .

(د) — البرهان (انالوطيقا الثانية) . وفيه القوانين التي تمتحن بها الاقاويل البرهانية وقوانين الامور التي تلتئم بها الفلسفة وكل ما تصير به أفعالها اتمّ واكمل وافضل .

(هـ) — المواضع الجدلية (طوبيقا) ، وهي صناعة الجدل .

(و) — الحكمة المموهة (سوفسطيقا) وفيها قوانين الاشياء التي تغلّط عن الحق وتخادع الخصم .

(ز) — الخطابة (ريطوريا) ، قوانين الخطب والتأثير البلاغي .

(ح) الشعر (فويطيقا) ، فن الشعر ، للتأثير العاطفي الوجداني .

ومن قواعد المنطق الاساسية :

نظرية الانطباق : يستحيل ان ننسب الصفة نفسها الى الشيء ذاته في وقت بعينه

---

(١) التفاصيل من طبقات ١ : ٥٩ — ٦٠ .

وان لا ننسبها اليه ، اي يستحيل ان يكون شيء موجوداً ومعدوماً (غير موجود) في وقت واحد . واذا زعم زاعم ان شيئاً ما موجود ومعدوم معا فكلا ، الصفتين خطأ .

الايجاب يقتضي سلب الضد : حينما يحكم الانسان على شيء ، اي حينما ينسب اليه صفة فان الصفة المنسوبة تنفي ضدها ضرورة . فاذا قالوا مثلا : زيد مريض ، فانهم ينفون عنه الصحة ضمنا وضرورة .

ويتصل بالمنطق « نظرية المعرفة » : كيف يعرف الانسان الاشياء ؟

يعتقد ارسطو ان « المعرفة » انما تنتج من « صلة التفكير بالآراء » ثم من « الصلة بين هذه الاراء وبين النتائج والادلة » يعني : اذا وقعت حواس الانسان على شيء فانه يكتشف صفات هذا الشيء : مادته ، طوله ، حجمه ، لونه الخ . وبعدئذ يتألف من هذه الافكار المختلفة «رأي بأن هذا الشيء «بيت» مثلاً. على ان هذا الرأي يكون في بادىء الامر اقتناعاً شخصياً ، فيجب على الانسان ان يقارن هذا الذي قال عنه انه بيت بامثاله من البيوت ليرى اذا كانت النتائج التي وصل اليها بالتفكير مطابقة للمعروف عن البيوت ، ثم يقيم الدليل على نتائجه ؟

٢ — الطبيعة . الطبيعة « مجموع الوجود المتعلق بالمادة والخاضع للحركة » . والحركة في الوجود نوعان اولها « الكون والفساد » ، اي تبدل الصور على المادة الواحدة ؛ وثاني نوعي الحركة « الانتقال المحسوس » . والحركة التي هي الانتقال المحسوس تحتاج الى مكان وزمان . فالمكان ضروري لحدوث الحركة ، والزمان ضروري لقياس تلك الحركة . والمكان غير متناه من حيث الامتداد . والزمان كذلك غير متناه لا في الازل (الماضي) ولا في الابد (المستقبل) . وعلى هذا كان الوجود خالداً : كذلك كان وكذلك سيبقى أبداً .

والوجود مؤلف من عناصر خمسة احدها الاثير ومنه تتألف النجوم وما في السماء ، ثم العناصر الاربعة التي تخيلها الايونيون : الماء والهواء والتراب والنار ، وهي التي تتشكل منها الاجسام على الارض .

اما حركة العالم كله فهي الدوران ، لأن الدوران اتم انواع الحركة . والله يحرك العالم من غير ان يتحرك هو . والطبيعة تتحرك أبداً ، تحركها « النفس » او قوة الحياة او النشاط الموجود في المادة ، فتندفع المادة في تطور صعودي: من الجماد الى النبات الى الحيوان (البهيم) الى الانسان . وعلامة التطور الصعودي تعدد مظاهر النشاط: فالنبات ليس فيه من مظاهر النشاط سوى النمو وما يتعلق بـه من التغذية والهضم والتمثيل ومن التكاثر (وتسمى هـذه القوة : « النفس النباتية ») . واما الحيوان (البهيم) ففيه فوق ما في النبات الحركةُ الارادية والانفعـال كالتأثر والهياج والغضب والجوع والعطش (وتسمى هذه القوة فيـه « النفس الحيوانية » — او البهيمية على الاصح) . واما الانسان ففيه بالاضافـة الى ما في النبات والحيوان معاً « التفكيرُ » الذي هو مظهر النفس العاقلة او العقل (ويسمى « النفس الانسانية ») .

والعقل في الانسان نوعان : « عقل نظري » يتناول التفكير المطلق في العلوم واستخراج القوانين ؛ ثم « عقـل عملي » وهو الذي يستنبط به الانسان الصناعات النافعة ويمارسها كالحدادة والنجارة . . . .

(أ) — المادة والعالم الواقع . يرى ارسطو ان ثمت عالماً حقيقياً واحداً هو العالم الذي نعيش فيه . ان هذا العالم غير كامل ، وان كان في صورته الحاضرة على اتم ما يمكن ان يكون الآن ، ابداً في تطور صعودي نحو الكمال .

والعالم بمادته قديم : موجود منذ الازل ، لم يكن ثمت زمن سابق عليه ، ذلك لأننا لا نستطيع ان نبحث في هذا العالم الا اذا افترضنا ان « المادة » كانت موجودة منذ الازل .

(ب) — العلل والاسباب . ان جميع المظـاهر الطبيعية في عالمنـا انما هي نتيجة اسباب مادية طبيعية (راجع فصل الفلسفة الماورائية) .

(حـ) — فلك القمر . واعتقد ارسطوا ان فلك القمر يقسم الوجود قسمين

غير متساويين ولا متشابهين . فما فوق فلك القمر (السماء) ارحب فضاء ، وهو لامتناه ، وهو عالم الكمال ، لا كون فيه ولافساد . واما ما دون فلك القمر فهو الارض التي نعيش عليها ، وهي محدودة خاضعة للكون والفساد والتبدل ، وبالتالي للنقص .

٣ — الفلسفة الماورائية . الفلسفة الماورائية هي فلسفة ما وراء الطبيعة ، او ما بعد الطبيعة ، وهي التي سماها ارسطو نفسه «الفلسفة الاولى» او انطولوغا . اما اسم « ما وراء الطبيعة » او « ما بعد الطبيعة » فجاء بطريقة عُرفية بحت : حينما رُتبت فلسفة ارسطو وقع فصل « الفلسفة الاولى » وراء فصل « الطبيعة » فاكتسب اسمه من الترتيب الشكلي لفلسفة ارسطو لا من حقائق موضوعه .

على انه قد اتفق ايضاً ان تتناول الفلسفة الماورائية « مبادىء الوجود المطلقة كالصورة والمادة ، والعلل ، والزمان والمكان » ، مما لا يقع تحت الحس مباشرة ، بل هو وراء الحس ايضاً .

واذا نحن انعمنا النظر في فلسفة ما وراء الطبيعة وجدناها تتناول بحثين عظيمين ، تتناول مبادىء الوجود ، وتتناول البحث في الالوهية خاصة .

(أ) — اما القسم الاول الذي تتناوله الفلسفة الماورائية ، فهو « مبادىء الوجود » وهو في الحقيقة « الفلسفة » على وجه الحصر . هذه المبادىء اربعة : الصورة والمادة والسبب المحرك والغاية . وكان الفلاسفة الطبيعيون قد تكلموا على المادة فقط ، وفصّل افلاطون القول بالمثل . اما الذي استخرج هذه المبادىء وعالجها معالجة موضوعية اساسية فهوا ارسطو . ان افلاطون في الحقيقة قد منع الصلا بين عالم المثل وعالم الواقع ، وفصل بين الشيء وبين صورته المثلى في الملاء الاعلى . اما ارسطو فنظر الى الاجسام الجزئية على انها هي الموجودة فعلاً ، وان المعرفة تتعلق قبل كل شيء بهذه الاجسام الجزئية .

فالموجود الحقيقي عند ارسطو هو الشيء نفسه كما هو في عالمنا ، لا صورته المثلى العامة على ما رأى افلاطون .

واقدم اشكال الوجود عند ارسطو « الهيولى » او المادة الاولى. هذه الهيولى أزلية ليس لها بدء وليس ثمّت زمان سابق على وجودها. على انها في شكلها الازلي الاول كانت فوضى لا « صورةَ خاصةً » لها : لقد كان الوجود اللامتناهي مملوءاً بها .

ثم اخذت هذه الهيولى تتطور ، فتنوعت وبدأت تظهر فيها صور بدائية لم تكن بعد متحيزة في مكان ولكنها كانت على كل حال متميزة بذاتها ، فنشأت العناصر – اذا جاز التعبير . في هذا الطور اصبحت الهيولي او المادّة الاولى «مادة ثانية » او « المادّة ».

وبعد ئذ اخذت هذه المادة الثانية تتطور وتتلبس « صوراً خاصةً » ، فنشأت الاجسام التي اصبح كل واحد منها متحيزاً في مكان خاص ومتميزاً من كل عداه بحجمه وماهيته . وهكذا نجد ان الصور متأخرة عند ارسطو عن المادة (بخلاف ما قاله افلاطون) وان بدء ظهور الصور في المادة انما هو بدء تطورها من الفوضى الى ما هي عليه اليوم فعلاً ، في طريقها الى الكمال .

أما الحركة فلا تفهم – من الناحية الفلسفية المحض – الا بالاضافة الى المادة والصورة . ان الحركة لا يمكن ان تحدث مجردة من المادة ، بل يجب ان تكون عندنا « حركة في مادة » او «مادة تتحرك» . ان هنالك في المادة نفسها «امكاناً» للتطور بالانتقال من صورة الى صورة ارقى ، فجميع الصور اذن موجودة في المادة بالقوة (اي ان في المادة استعداداً لقبول جميع الصور – ففي الخشب مثلاً تكمن صور الخزانة والطاولة والمقعد والعمود والصندوق) ، فاذا نحن أفضنا على المادة صورةً ما ، فصنعنا مثلاً صندوقاً من الخشب فان صورة الصندوق التي كانت كامنة في الخشب من قبل قد تحققت واصبحت صورة بالفعل : «ان خروج صورة الصندوق في الخشب من القوة الى الفعل هي المظهر الاول للحركة ». فالاستعداد للحركة في المادة يحسن ان نسميه اذن « النشاط » .

يقول ارسطو : «ان كل خروج من القوة الى الفعل محتاج الى محرك بالفعل» ،

مادة ← صورة ← صورة ← صورة محض (الله)

فاذا كان لكل جسم بمفرده محرك ، فيجب ان يكون لهذا العالم بجملته محرك ايضاً . ولكن المحركان يختلفان : ان حركة كل جسم منبعثة منه نفسه ، فهي اذن قاصرة عليه دون غيره . اما المحرك الذي يحرك العالم كله فيجب ان يكون محركاً محضاً وفعلاً مطلقاً كله ، لأنه لو كان متصلا بمادة لكان محركاً بالقوة ولكان بالتالي ناقصاً .

ولكن بما ان هذا المحرك « مفارق للمادة » (غير متصل بمادة ولا يمكن ان يتصل بها) فهو صورة مطلقة ، وبما انه صورة مطلقة بريئة من المادة فهو اذن بريء من التكثر والتنوع (اللذين هما من صفات التلبّس بالمادة) : انه بسيط ، ولكنّ له « نشاطاً » ذاتيا واحداً : انه يعقلُ فقط . وهو في ذلك يعقل ذاته . وهو يحرك العالم بعقله من غير ان يتحرك هو او يجهد . انه لا يتحرك ، اذ ليس له خارج ذاته غاية يتحرك اليها ، بل هو الغاية (القصوى المطلقة) التي يتشوق كل شيء اليها ويتحرك نحوها وهو ينجذب الى الكمال ، كما يتعلق كل عاشق بمعشوقه ويسعى الى الوصول اليه .

وهكذا يجب ان نفهم « الله » عند ارسطو على انه « محرك هذا العالم » ، وانه الباعث الخالد على حركة العالم نفسه . اما العالم نفسه فقد كان دائماً موجوداً ولن ينعدم ، وهو يتحرك ابداً صعوداً للتطور نحو الكمال .

(ب) — والناحية الثانية في فلسفة ارسطو الماورائية هي « الالوهية » : يميل ارسطو الى القول بنوع من الوحدانية الشاملة ، ولكنه لا يخالف قومه اليونانيين في القول بالارواح « الالهية » المتعددة ، الا انه يوافق سقراط في تنزيه تلك الآلهة المتعددة عن صفات البشر .

وكذلك يرى ارسطو ان ايمان الناس بالآلهة يرجع الى التأثير العظيم الذي يتركه في نفوسهم عِظمُ العالم وجماله وقوانينه المحكمة . ولقد اعتقد البشر دائماً في كل عصر وفي كل امة وفي كل طور من اطوار الانسانية بقوة عظيمة مقتدرة قاهرة فوقهم ، هي « الله » .

٤ - السياسة. الانسان محتاج الى غيره من البشر لكي يبلغ بالتعاون معهم غاياته العملية في الحياة، ولا يبلغه هذه الغايات الا «الدولة» وهكذا فرضت الطبيعة على الانسان ان يكون مَدنياً (مضطراً الى الاجتماع مع غيره للتعاون على تكاليف الحياة). فكان الاجتماع الاول في التاريخ «الاسرة»، فالاب رأس البيت وهو المشرف على شؤونه لانه صاحب العقل والتدبير. اما المرأة فعملها يقتصر على تربية الاولاد والعناية بالمنزل (بخلاف رأي افلاطون). واذا اتسعت الاسرة اصبحت قرية واذا اجتمعت القرى كانت المدينة (الدولة). وأرسطو كافلاطون يجيز الرقيق على ألا يكون يونانياً. اما احسن اشكال المدينة فالشكل الذي يتيح اكبر الخير للمجموع وللفرد؛ وفيما عدا ذلك فالملكية والارستوقراطية والبولوتيا (وهو شكل مزيج من سيطرة الوجهاء والعامة) سواء. على ان الشكل الاستبدادي (تيرانيس) او الاوليغارقي (سيادة الوجهاء) او الديمقراطي (سيادة العامة) انما هو تشويه للحكم الصالح، ولا ريب في ان الاستبداد هو اسوأ هذه الاشكال المشوّهة. على ان صلاح الحكم او فساده لا يُعرف من الاسم الذي يُطلقه الحاكم على شكل حكمه، بل على الغاية التي يحاول الوصول اليها في حكمه: فاذا قصد من حكمه النفع العام فحكمه صالح، واذا استغل حكمه لمصالحه الشخصية، فان حكمه سيء فاسد مهما اطلق عليه من الاسماء.

٥ - الاخلاق. يرمي الانسان من سلوكه الى ان يحقق خيراً (ان يعمل عملا ذا قيمة). والاخلاق نوعان:

(أ) ان بعض سلوك الانسان واسطة لتحقيق الخير، تلك هي الفضائل التي هي وسط بين نقيضين أو نقصيتين، وهي الاخلاق التي يحتاجها الانسان في المجتمع، فالانسان حيوان مدني. ان كل ميل في الانسان لا يمكن ان يكون خيراً كله او شراً كله، ثم ان الاعمال الصادرة عن هذه الميول ليست خيراً في نفسها ولا شراً في نفسها. ان الافراط في الخير مضر، فان كثرة الغذاء تسيء الى الصحة مثل قلته. ونحن لا نُسمي «سافلين» لاننا نطلب اللذة، بل لاننا نسرف في الانغماس فيها.

هذا النوع من الفضائل الخلقية تكتسب اكتساباً وتقوى بالعادة والممارسة والتربيـــة .

(ب) — الفضائل العقلية هي الفضائل المقصودة لنفسها وهي التي تؤدي الى السعادة ، لانها تصدر عن العقل ، وترمي اما الى « الوصول الى الحقيقة » او الى « التمييز بين الحسن والقبيح » من الناحية النظرية فقط . ان الفضائل العقلية تستمد قيمتها من امرين : انهـا تعبر عن حياة الفرد الشخصية من غير اهتمام بما يفرضه عليه التعايش مع الآخرين . ثم ان في العقل « جزءاً الهياً » ، فاذا اطاع الفرد عقله شعر بقيمة تلك النعمة الالهية فتزيد حينئذ سعادته .

والفضائل كلها تخضع للارادة والاختيار ، وتزيد قيمتها بنسبة ما فيها من ذينك العاملين . ان في الانسان « نزوعاً » (شوقاً ورغبة) الى بعض الاعمال دون بعض ، فالفضيلة اذن ان نعمل نحن العمل الذي نتزع نحن اليه (نعرف اننا نميل اليه) . فاذا وجدنا هـذا النزوع في انفسنا وجب ان نقدم على تحقيقه مختارين (لا مضطرين بعامل خارجي او بتقليد) ، وحينئذ تكون اعمالنا اعمالاً انسانية على مقتضى العقل والخلق الكريم .

على ان ثمت اعمالاً يعملها الانسان تحت تأثير الخوف الشديد ، فاذا كان الانسان يأتي بذلك ذنباً صغيراً ولكن يتلافى خطراً عظيماً فهو معذور ، واما اذا كان يأتي بذلك ذنباً جسيماً ليتلافى خطراً يسيراً فهو غير معذور .

المَذَاهِبُ المُغْلَبَة

نقصد بالمذاهب المغلبة « المذاهب الفلسفية » التي نشأت في مدى تسعماية عام ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد الى القرن السادس بعد الميلاد . ونقصد بكلمة «مغلبة» على الخصوص ، ان هذه المذاهب « غُلِبَت » على امرها ولم يُتح لها ان تشتهر ، اما لأن تآليفها لم تصل الينا ، او لأن رجالها لم يكونوا من نَجْر سقراط وافلاطون وارسطو ، او لأن رجالها لم يبتكروا شيئاً بل قصّروا هممهم على التوسع في بعض

المشاكل التي أثارها سقراط وافلاطون وارسطو ، وهو الارجح .

ونحن سنمر بهؤلاء كلهم مراً سريعاً ، لانهم كانوا ضئيلي الاثر في الفلسفة الاسلامية ، ولا غرو فان شهرتهم في بني قومهم ايضاً كانت محدودة ، ثم ان فلسفاتهم كانت مغمورة في ذلك النتاج العبقري الذي افاضه سقراط وافلاطون وارسطو على الدنيا .

وتمتاز المذاهب المغلبة كلها بامور :

(أ) — التلفيق ، اي الجمع بين مذاهب مختلفة .

(ب) — الاقتصار . قد يقتصر مذهب على نقطة معينة او يهتم بها اهتماماً خاصاً ، كالاخلاق مثلاً . ولم يكن هذا الاقتصار يمنع من التلفيق ، فقد يجمع المذهب الواحد رأيه في الاخلاق مثلاً من مذاهب متقدمة جمة .

(ج) — يغلب في هذا المذاهب الاهتمام بالانسان على الاهتمام بالطبيعة .

(د) — بُنيَ بحث الاخلاق في هذه المذاهب على السعادة الفردية الناشئة من الموازنة بين الفرح والترح (اللذة والالم) .

آل سقراط

(اتباع سقراط)

المَذهَبُ المَاغَارِيُّ

ينسب هذا المذهب الى اقليدس الماغاري (١) ، وهو غير اقليدس صاحب كتاب الهندسة المشهور (٢) . ولد اقليدس هذا في ماغارا ، ومال في اول امره الى المذهب الايلي فتلقاه على برمينيدس وزينون ، ثم جاء الى اثينة فتعلم على

(١) راجع طبقات ١ : ٣٦ ، قفطي ١٨

(٢) Ueberweg I 156 ، راجع طبقات ١ : ٢١١ ، ٢٨١ س ، ٢ : ٣ .

سقراط . وبعدئذ رجع الى ماغارا وانشأ مدرسة تردد عليها صديقه افلاطون مدة من الزمن .

ومزج اقليدس الماغاري بين المذهب الايلي القائل بان الوجود الواحد غير متبدل وبين الاخلاق عند سقراط ، فقال : « ان الوجود واحد هو الخير » ؛ وسمى ذلك اسماء مختلفة : سماه مرة «الرأي» ومرة «الله» ومرة «العقل» . فالوجود الحقيقي اذن هو الخير ، ويقابله العدم . وقد استعان اقليدس ومن تبعه من شيعته بالجدل السفسطائي على نصرة رأيهم .

ومن اشهر اتباع اقليدس هذا رجل اسم اوبوليدس ، ساق جداله في طريق طريفة فاشترط ان يكون جواب كل سؤال «نعم» او «لا» ليستنتج هو ان نتيجة الاثبات والنفي واحدة. فهو يسأل مثلا : هل فقدت قرنيك ؟ فان قلت : «لا» ، فالمعنى ان لك قرنين ؛ وان قلت : «نعم» فالمعنى ايضاً ان لك قرنين .

المَذهبُ الكَلبيُّ أوِ الكِلابيُّ

اسس هذا المذهب رجل من اثينة اسمه انطسثانس (انتستانس) ، كان في اول امره تلميذاً لغورجياس السفسطائي ، ثم تلمذ على سقراط . واكتسب هذا المذهب اسمه في الاغلب من اهمال اصحابه لطريقة معيشتهم ورضاهم بالدون ولنقدهم اللاذع للناس . وكانوا يرون طرح الفرائض المفترضة في المدن على الناس ومحبة اقاربهم وبغض غيرهم من الناس ، وانما يوجد هذا الخلق في الكلاب . . . وكان احدهم يتغوط غير مستتر عن الناس وربما اتى القبيح من الامر في الاسواق وقال اذا كان هذا الامر يصلح في بعض المواضع فيجب ان يصلح في المواضع كلها (راجع القفطي ٢٥ ، ١٧٢ – ١٨٣) .

ومن آراء انطسثانس ان ثمت فضيلة واحدة هي « الخير »، وهي فضيلة قابلة للتعليم . اما السعادة فليست ضرورية . واما السرور (الفرح ، الالتذاذ) فهو شر . وان الفاضل الوحيد هو الحكيم .

ومن اشهر اتباع هذا المذهب ذيوجانس الذي بالغ في التقشف والاستهانة بالناس . وكان على آرائه مسحة اشتراكية اخذها في الاغلب من فيثاغوراس فقال بشيوع النساء والاولاد وبابطال الزواج ، ثم جعل التمتع مبنياً على الاتفاق بين الرجل والمرأة .

الْمَذْهَبُ الْقُورِينَانِيُّ الْقَدِيمُ

نشأ هذا المذهب في مدينة قورينا على يد ارسطبّوس (القفطي ٢٠ ، ٧٠) احد تلاميذ سقراط . تطوّف ارسطبوس في البلاد ثم استقر في قورينا ليعلم فلسفته . ويذكر القفطي ان فلسفة القورينائيين قد جُهلت لمّا تحققت فلسفة المشائين (أتباع ارسطو) .

على ان فلسفة ارسطبوس تقوم على قوله : لسنا على ثقة الا من حسنا الشخصي . ثم نحن لا ندري اذا كان الآخرون يحسون احساسنا نحن .

وهو يرى ان السعادة انما هي في اللذة ، وفي اللذة الايجابية الحاضرة فقط .

آل افلاطون

قُدَمَاءُ الْمَشَّائِين : أَتْبَاعَ أَفْلَاطُونَ خَاصَّةً

(الاقاذميون – اهل اقاذميا)

المشاءون هم « شيعة افلاطون وشيعة ارسطوطاليس ، ويُعرفون بالمشائين لأنهم كانوا يعلمون الناس وهم يمشون كيما يرتاضُ البدنُ مع رياضة النفس » (القفطي ٢٦) .

ويجوز ان نسمي اتباع افلاطون خاصة قدماء المشائين (راجع تهافت التهافت ٢٥٩) ، ولكن يحسن ان نسميهم الاقاذميين كما سمّاهم مؤرخو الفلسفة

المحدثون، ونختص باسم المشائين اتباع ارسطو خاصة (١) . ولقد سمى الشهرستاني (٣ : ١٤ ـ ١٥) هؤلاء فلاسفة اقاذاميا او مشائي اقاذاميا ، ثم ذكر ان المشائين باطلاق هم اهل الضاحية الاثينية لوقين (اي ارسطوا واتباعه) .

اما كلمة اقاذاميا فهي مشتقة من « اقاذمي » وهو بستان زيتون خارج اثينة كان يعتزل فيه افلاطون ويعلم .

*

من الصعب ان نضع حداً فاصلاً دقيقاً بين تعاليم افلاطون وبين تعاليم الاقاذميين ، ذلك لأن افلاطون لم يستنفد كل آرائه في كتبه ، بل عبرّ عن كثير منها في احاديثه الخاصة . من اجل ذلك لا ندري نحن اليوم اذا كان بعض هذه الآراء قد تسرب بنصه الى فلسفة الاقاذميين ، مع انه لم يصلنا من فلسفة هؤلاء الا نُتَفٌ يسيرة .

واول ما تتميز به فلسفة هؤلاء (اذا استثنينا ارسطو) الجدل المنظم ، على طريقة افلاطون ، والقولُ باللذة وانها الخير كله كما قال جميع اصحاب المذاهب المغلّبة . ثم ان بعض هؤلاء قد جمعوا بين « اُلمثُل » الافلاطونية وبين « العدد » الفيثاغوري .

آل ارسطوطاليس

المَشَّاؤونَ بإطلاقٍ

المشاؤون على الحصر هم اتباع ارسطو . وهؤلاء كثار اشهرهم ثاوفرسطوس (ثيوفرستوس) واوذيموس . ولقد التفت المشاؤون عن البحث في الماورائيات (ماوراء الطبيعة) واهتموا بالعلوم الطبيعية والتاريخية والادبية وبآداب السلوك العامة . وكذلك اهتموا بصياغة عدد من آراء ارسطو من جديد .

(1) Ueberweg I 311, 341 ff. 401 ff.

واشهر المشائين عند العرب ثاوفرسطس الحكيم اليوناني ،(وهو تلميذ ارسطو وابن اخيه (القفطي ١٠٦) او ابن اخته (القفطي ٣٢ ، طبقات ١ : ٣٦) او ابن خالته (طبقات ١ : ٥٧، ٦٩) . وقد خلف ارسطو على دار التعليم بعد وفاته وأدارها منذ توفي ارسطو الى ان توفي هو (٣٢٢ – ٢٨٧ ق. م) ، اي نحو خمسة وثلاثين عاماً (١) .

وثاوفرسطس شارح لكتب ارسطو ومؤلف ايضاً ، وله آراء منها ان الالوهية لا تتحرك : لا تتغير ولا تتبدل ، لا في الذات ولا في شبه الافعال .

ومن تلاميذ ارسطو المشائين ايضاً اوذيموس (طبقات ١ : ٣٦ ، ٨٤) . ومع انه اقل من ثاوفرسطس شهرة (٢) عند العرب خاصة فقد كان اكثر اخلاصاً لآراء استاذه . على ان اكثر تعلقه كان بالالهيات ، بينما تعلق ثاوفرسطس كان بالطبيعيات .

---

(١) راجع ايضاً الشهرستاني ٣ : ٧٧ ، Ueberweg I 403 .

(2) Vgl. Ueberweg I 403 - 4 .

الفصل الرابع

انحطاط الفكر اليوناني

الدَّوْرُ الهِلِّينِيُّ (اليُونَانِيُّ الرُّومَانِيُّ)

في تاريخ الفلسفة

يمتد هذا الدور نحو الف عام، من اواخر القرن الرابع قبل الميلاد الى اواسط القرن السابع بعد الميلاد . ان التفلسف في هـذا الدور كان يعكس صورة البيئة المضطربة التي نشأ فيها : انحلال الامبراطورية الرومانية بمجيء البرابرة ، وتزعزع الثقة بالعنصر اليوناني لاحتكاك اليونان بالثقافات الشرقية ، وتقييد الفكر الانساني مع انتشار النصرانية في اوروبة .

ان هذه العوامل قد صبغت التفكير بالخصائص الآتية :

(أ) النزاع بين اصحاب المذاهب الفلسفية .

(ب) التلفيق بين ما اتفق عليه اصحاب المذاهب المختلفة تلافياً لهذا النزاع .

(ج) ابراز العنصر «النسبي» في وضع المذاهب الفلسفية ، فقد جعل المتفلسفون يوفّقون بين المذاهب وبين النزعات المختلفة في بيئتهم ، تلافياً للنزاع ايضاً . وهكذا زالت صفة «الاطلاق» عن التفكير .

(د) التعمق في الفقه ومزج الفلسفة بالدين . لقد عز على فقهاء اليهودية والنصرانية ان يَرَوْا التناقض المرّ بين العقل اليوناني وبين الروايات الدينية ، فحاولوا جهد الطاقة ان يفسرا رواياتهم الدينية تفسيراً يليق بالعقل . فلما اعياهم ذلك انقلبوا الى الفلسفة الصحيحة يشوهون معالمها حتى يقرّبوا ما شوهوه الى تلك الروايات في عيون العامة .

(هـ) بث الفلسفة في الجمهور . ولما خضعت بحوث الفلسفة للعوامل المذكورة

آنفا لم يبق منها مـا يليق بالمفكرين ، فبثوها في سواد العامة .

*

من اجـل ذلك انصرف بعض المفكرين عـن التفكير النظري الذي انحط يومذاك الى الكتابة في « العلوم » : في الفلك والجغرافية والتاريخ والنحو وما الى ذلك . وفي هذا الدور تنقلت الفلسفة بين مدن مختلفة امثال برغاموت وانطاكية والاسكندرية .

المَذَاهِبُ المُتَعَارِضَةُ

هنالك مـذاهب نشأت منذ اوائل العصر الهلاني يصحّ ان نسميها « المذاهب المتعارضة » ، ذلك لأن كل مذهب منها كان معارضاً لسائر المذاهب التي عاصرته.

ان كل مذهب من المذاهب المغلبة كانت يحاول ان يختص بفن او اكثر من فن من فنون الفلسفة التي تقدمته . اما اصحاب المذاهب المتعارضة فكان يناقض بعضهم بعضاً في سبيل تعليل الخير والسعادة على الاكثر.

أَصحَابُ المِظَلَّة (الرُّواقِيون)

اصحـاب المِظَلّة او اصحاب المِظالّ هم الذين كانوا يتعلمون الفلسفـة في « رواق » هيكل مدينـة أثينة (١) ، ولذلك يُسَمّوْن ايضـاً « الرُواقيين » . ومع ان زينون القبرسي هو مؤسس ذلك المذهب فان العرب ينسبون تأسيسه الى كرسبّس المتوفى بعـد زينون بنحو ستين سنة (٢) على الرغم من ان الشهرستاني يذكر كرسبس وزينون معاً (٣ : ٣٤) .

تتلمذ زينون القبرسي (ت نحو ٢٦٣ ق. م.) على الكلابيين والماغـارايين

---

(١) راجع الشهرستاني ٣ : ٣٤ ، القفطي ٢٥ ، ٢٦٥ .

(٢) راجع Ueberweg I 41o ff ، القفطي ٢٥ ، الشهرستاني ٣ : ٣٤. والعرب يذكرون كرسبس باسم كرسفس وخرسبس ، اما خروسيس بالياء (الشهرستاني) فخطأ مطبعي .

والاقاذيين واسس عام ٣٠٠ ق. م. مذهباً اخلاقياً في الدرجة الاولى مبنياً على نظرية الاخلاق عند الكلبيين، وهو يقوم على ان الخير هو السعادة، وان الانسان يبلغ السعادة من طريق الفضيلة. اما الفضيلة نفسها فهي نتاج الارادة المعتمدة على العقل، لذلك ليس لعمل المجنون قيمة ولو كان ذلك العمل صواباً . ومن الفضيلة «احتمال» المشاقّ في سبيل الوصول الى الخير وتحقيقه.

وقد قال الرواقيون بأن جميع الناس سواء : العبيد والاحرار ، واليونانيون والبرابرة . اما الحر الحقيقي فهو « الحكيم » : انه غني سعيد ، وهو ملك حقيقي ارقى من سائر البشر ، بل هو يشبه الآلهة ، ، وربما كان فوقهم لانه يحتمل المكاره ويصبر عليها.

والرواقيون ماديّون يرون ان المعارف جميعها حسية (تعرف من طريق الحس) .

شِيعَةُ أفيغُورَسَ (الأَبيقُورِيُونَ)

يقول القفطي (ص ٢٦) : واما الفرقة التي كان يراها اصحابها في الغرض الذي كان يُقصد اليه في تعليم الفلسفة فهي « شيعة افيغورس » ، ويُسمّون « أصحاب اللذة » لأنهم كانوا يرون الغرض المقصود اليه من تعلم الفلسفة اللذة التابعة لمعرفتها .

وكان جل اهتمام افيغورس بالاخلاق، فذكر عنه الشهرستاني (٣ : ١٧) ان الانفس اذا عملت خيراً ورد عليها سرور وفرح، واذا عملت شراً ورد عليها حزن وترح ، وانما يكثر سرور كل نفس بالانفس الاخرى (بالاجتماع بها) .

بنى افيغورس فلسفته على « اللذة وأثامها » (الأثام بفتح الهمزة : العقاب على الذنب). ان افيغورس يدعو الى تطلّب اللذة الحسية بجميع انواعها ، اذ لا خيرَ مطلقٌ ولا شرٌ مطلق في اللذات ، وانما الشر في كل شيء هو الانغماس فيه حتى يعود الاسراف بالضرر على المتلذذ . فعلى الانسان اذا طلب لذة ان يوازن اولاً

بين السعادة العاجلة التي سينالها وبين الأثام المتأخر الذي سيناله، فاذا وجد السعادة فوق الأثام مضى في رغبته في اللذة.

ونحن نورد هنا ملاحظة على الأثام ، قال ابو نُواس :

ولقد نهزتُ مع الغواة بدلوهم   واسمت سرح الطرف حيث اساموا،
وبلغت مـا بلغ امرؤ بشبابه   فـاذا عُصارة كل ذلك « أثام ».

وكذلك نتدبرُ الآياتِ الكريمة الواردة في سورة الفرقان من القرآن الكريم (٢٥ : ٦٧ – ٧٠) : « والذين اذا انفقوا لم يُسرفوا ولم يقتُروا، وكان بين ذلك قواماً . والذين لا يدعون مع الله آلهاً آخر ، ولا يقتلون النفسَ التي حرّم اللهُ الا بالحق ، ولا يَزْنون ؛ ومن يفعـلْ ذلك يلقَ أثاماً : يُضاعفْ له العذابُ يومَ القيامة ويَخلدْ فيه مُهاناً . الا من تاب وآمن وعملَ عملاً صالحاً ، فأولئك يبدّل الله سيئاتِهم حسناتٍ ؛ وكان الله غفوراً رحيما ».

فالاخلاق تقوم عند افيغورس اذن على الموازنة بين مقدار ما تنتج الرغبة من اللذة ومن الالم ، فالسعادة عنده ان ينال الانسان باعماله اعظم مقدار من اللذة مع اقل مقدار من الالم. والذي يحمل على السعادة ان يعيش المرء عيشة هادئة مطمئنة، فدوام الاطمئنان « سرور » ، وانقطاع الاطمئنان « ألم » . وعلى هذا يسعى المرء الى ان يتمتع بالاطمئنان في الحياة قدر الامكان، ولذلك يجب عليه ان يترك الزواج والاشتغال باعمال الحكومة وبالاعمال الاجتماعية، ذلك لأن هذه تزيد التكاليف على الانسان وتقطع عليه اطمئنانه .

والفضيلة الاساسية عند افيغورس هي « الرأي الصواب »، ومنها تتفرع سائر الفضائل ، وليس الفاضل من يحظى باللذة ، وانما هو ذلك الذي يحسن السلوك في السعي الى اللذة . ان الفضيلة وسيلة الى السعادة ، والسعادة فوق اللذة .

وافيغورس قليل الاحتفال بالآلهة ، لانها لا تضر ولا تنفع ، ولكنه يحترمها لأنها نماذج مثلى للبشر (لهـا صفات يحسن بالبشر ان يسعوا الى التخلق بها).

شِيعَةُ فورُون

اصحـــاب الشك

خَلق هذا المذهبَ كثرةُ التناقض بين المذاهب السائدة يومذاك . من اجل ذلك قـال اصحـاب الشك بان الحواس والعقل عـاجزة عن ادراك الحقـائق وخصوصاً فيما يتعلق بالآخرة وبالفرق بين الخير والشر. بل لقد تطرفوا وقالوا ان من دواعي الاطمئنان للنفس ألاّ يُصْدِرَ الانسانُ حكماً على شيء ولا يُبدي رأياً خاصاً ، ثم بالغوا فقالوا ان جميع المتناقضات ، سوى السلوك الحسن ، متماثلة. اما الاطمئنان (السعادة) فان الانسان يستطيع الوصول اليه اذا تبع ما تعوده من غير ان يحاول هو نفسه ان يصل الى الحقيقة .

وينسب هذا المذهب الى فورون(١) Pyrron (ت ٢٧٠ ق.م.)، وقد وضع فورون مذهبه هذا بعد ان تأثر بفلسفة ديمقراطيس وفلسفة السفسطائيين والقورينائيين. ولقد حدّث فورون بَفلسفته تحديثا ولم يكتبها.

مَذْهَبُ التَخَيُّرِ

قام مذهب الشك لانكار الحقائق ، ذلك لأن المذاهب الفلسفية لم تجمع كلها على الاتفاق في وصف تلك الحقـائق . اما مذهب التخير فقد ادرك اختلاف المذاهب ولكن اراد ان يأخـذ من كل مذهب احسن ما فيه ، على ان يستخرج هومن هذه المذاهب كلها « مسلكاً عملياً» في الحياة والتفكير .

وكان اعظم من مثّل هـذا الاتجـاه في التفكير الخطيب الروماني المشهور شيشرون (ت ٤٣ م.) . وكان رؤساء المذهب الاسكندراني ايضـاً ينحون هذا النحو في التفلسف .

---

(١) راجع القفطي ٢٦ حاشية a ، ٢٥ حاشية c . و Ueberweg I 461 ff.

أَعْقَابُ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ فِي ٱلْعَصْرِ ٱلْقَدِيمِ

امتلأت القرون الستة الاولى للميلاد بمذاهب فلسفية محدودة الاثر، هي في الحقيقة بقايا من المذاهب المتأخرة كالمذهب الكلابي ومذهب الرواقيين ومذهب افيغورس ومذهب اقاذاميا ومذهب المشائين ومذهب الشك، تلك المذاهب التي لم تَمّحِ الى آخر ايام الفلسفة القديمة. اما اعظم هذه المذاهب المتأخرة كلها فكان المذهب الاسكندراني.

ٱلْمَذْهَبُ ٱلإِسْكَنْدَرَانِيُّ

هذا المذهب يعرف باسم Neo-Platonismus اي « ما بعد الافلاطونية »، وهو مذهب يقال فيه انه مشتق من فلسفة افلاطون ليدل على صحة اركان الدين (المسيحي في الاغلب). وقد درج الكتاب العرب على ان يسموه « الفلسفة الافلاطونية الجديدة » او « الفلسفة الافلاطونية الحديثة ». والحق انه ليس فلسفة ولا هو افلاطوني، وانما هو مزيج ملفّق شوّهت فيه فلسفة افلاطون وأرسطو، أو نُسبت بعض خيالاته الغريبة الى افلاطون وأرسطو. ويحسن ان نعالج نحن هذا المذهب على أنه مذهب مستقل، لا ضرر احياناً من الموازنة بينه وبين ما تقدم من المذاهب، وان نسميه المذهب الاسكندراني نسبة الى مدينة الاسكندرية بمصر كما سماه العرب (١)، وان كان هذا المذهب قد ساد قبل ذلك في غير الاسكندرية ايضاً.

ومما يُؤسف له ان الفلسفة اليونانية قد وصلت الى العرب في صدر نهضتهم الفكرية عن طريق هؤلاء الاسكندرانيين الذين لم يكونوا اوفياء للحقيقة الفلسفية،

---

(١) طبقات ١ : ٣ ، ١٠٣ ؛ قفطي ١٧١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ الخ. Cf. Ueberweg I 32,405

اما لقصور مداركهم عن استيعابها ، واما تعصباً منهم على الآراء التي لم توافق مذاهبهم الدينيه الخاصة .

مذهب تلفيقي اذا اعتبرنا نشأة المذهب الاسكندراني بالاضافة الى الذين اسسوه ادركنا انه مذهب تلفيقي لا تخيّري: ان التخير «ان تأخذ احسن ما في المذاهب المختلفة في رأيك» ، اما التلفيق فهو ان تضم بعض الآراء الى بعض حسب غايتك منها . ولقد دعا الاسكندرانيين الى هذا التلفيق انتشارُ الآراء الفلسفية في الشرق خاصة وقيام تلك الآراء جلية قوية بجانب الروايات الدينية المختلفة .

فيلون وتنبه اليهود الى ان المذاهب الفلسفية التي انتشرت في العالم القديم قد زعزعت اسس الروايات الدينية في صدر المفكرين والعامة وعلى السواء، وان البشر كلهم قد اقتنعوا بالفلسفة وصحة براهينها . من اجل ذلك حاولوا امرين :

(أ) اقامة ادلة فلسفية على صحة الدين عموما .

(ب) تأويل الروايات الدينية على شكل لا يخالف الفلسفة ، ولو ادّي ذلك الى تشويه الآراء الفلسفية عند الموازنة بينها وبين الروايات الدينية .

ونشأ في اليهود الاسكندرانيين نفرٌ اتجهوا هذا الاتجاه في التلفيق حتى جاء فيلون الاسكندري (نحو ٢٥ ق . م - ٥٠ ب م) فنظم آراء المتفلسفين من قومه، ولكنه لم يستطع ان يخلّصها من شوائب التلفيق ولا ان يضمها في نظام واحد او ان يستر ما فيها من التناقض والضعف .

(١) كان سبيل فيلون وقومه التوفيقَ بين الحكمة الهلاّنية (اليونانية المتأخرة) على الاخص وبين الاديان الشرقية عموماً . وقد استعان باحتجاجه لصحة التوراة بالآراء الرواقية والافلاطونية المتأخرة وبالحكم المروية عن سليمان ابن داوود .

(٢) ويدور اكثر تفلسف فيلون خاصة حول شرح التوارة شرحاً رمزياً ، فحوّاء مثلاً كناية عن «الحس» ، والحية كناية عن « اللذة ».

(٣) الله ، والكلمة ، والعالم . ان « الله » هو الفكرة الاساسية في تفلسف فيلون: لقد نفى عنه جميع الصفات التي وصفته بها التوراة. نحن نعلم ان الله موجود ولكن لا نعلم حقيقته، اذ انه «الوجود المطلق» الذي لا حدّ له ولا صفات له. وخلق الله العالم لا لأنه محتاج الى خلقه ، ثم هو يعتني به من غير تعب ولا جُهد . والله كامل كله بريء من المادة غير متصل بالعالم (لأن العالم مادة)، وهو يشمل العالم ويملأه.

ولكن بما ان الله لا يمكن ان يتصل بالعالم فقد خلق اولاً الكلمة Logos ، ووصفها فيلون بانها الابن الاول لله ، اما العالم فهو الابن الثاني لله (تعالى الله) .

وهنالك ارواح كثيرة تملأ الهواء ما بيننا وبين القمر ، فالملائكة خلقهم الله من رضاه والشياطين خلقهم من غضبه . وبما ان الانسان لا يستطيع ان يتصل بالله مباشرة ، فقد جعل الله الكلمة والملائكة ... شفعاء للبشر في توسلهم اليه .

انتشار المذهب الاسكندراني

على ان المذهب الاسكندراني كفلسفة عامة قد اسسه امونيوس او امونيس (طبقات ١ : ١٠٤). وعُرف امونيوس (١٧٥ – ٢٤٢ م.) بلقب سكّاس، اي « الحمّال » لانه كان في اول امره حمالاً . ولقد كان ابواه حملاه على النصرانية ، ولكنه عاد بعد قليل الى عقيدته الملاّنية القومية .

ولم يترك امونيوس كتباً ولكنّ آراءه وصلت الينا في ما كتب تلاميذه .

كان لأمونيوس تلاميذ أشهرهم افلوطين .

افلوطين وافلوطين (نحو ٢٠٣–٢٦٩ م.) من مدينة لوقن او لوقوبوليس (اسيوط) بمصر ، تعلم على حكماء الاسكندرية ، وتطوّف كثيراً في البلاد ومات في ايطالية.

١ — الله . وفهم افلوطين « الخير » على انه « الواحد » المطلق ، العلة

الاولى » : انه مصدر الاشياء كلها ولكنه يخالفها كلها فليس هو عقلاً ولا نفساً ، ولا متحركاً ولا ساكناً، وليس في زمان ولا مكان، ولكنه « كائن مطلق» بسيط لا يدركه الوصف ، لانه فوق الادراك . و « الواحد » كامل في نفسه لا يحتاج الى شيء ، بينما كل شيء يحتاج اليه .

وبما ان « الواحد» (الله) بسيط فهو منزّه عن جميع الصفات ، وعن ان يكون متصلاً بالمادة ، ومنزّه عن التنوع في ذاته .

٢ — الفيض والعالم . ووقف افلوطين امام مشكلة ، هي « خلق العالم » . رأى ان القول بقدم العالم على ما قال ارسطو يقود الى الكفر ، وان القول بخلق العالم حسب ما وردت به الروايات الدينية مناقض للفلسفة ، فاراد ان يلفق مذهباً لا يثير رجال الدين ولا يخالف الفلسفة في الظاهر فاتى بنظرية الفيض .

قال : ان الموجود الاول هو الله . ان الله يتأمل ذاته فيعقل بذلك نفسه (يعلم انه موجود) .

حينئذ يفيض (او يصدر) عنه كائن واحد هو « العقل » الاول . هذا العقل هو صورة الله ولكنه ليس الله نفسه. ويعود هذا العقل الاول فيتأمل ذاته فيصدر عنه كائن آخر هو « النفس الكلية » التي تملأ العالم . وترجع النفس الكلية بالتأمل في العقل الاول فيفيض منها كوائن متعددة هي نفوس الكواكب ... ثم يستمر الفيض فيصدر عن كل كائن كائناتٌ اخر اقل شبهاً بالعقل الاول المطلق (البريء من المادة) واكثر صلة بالمحسوسات ، حتى تفيض الهيولى ، وهي ادنى دركات الفيض ، لانها مادة مطلقة فوضى لا صورة لها البتة .

وهكذا نلاحظ ان الفيض انما هو « تسوية » بين الروايات الدينية في خلق العالم وبين الرأي الفلسفي ، ورأي ارسطو على الاخص . ان الفيض اقرب الى قول افلاطون الذي يجعل الصور المثلى في الملأ الاعلى اقدم الكائنات واكملها. فرأي افلاطون في الكائنات اذن كان رأيا « روحيا » فكان من اجل ذلك اقرب الى ما يريده اصحاب المذاهب الدينية.

وعلى هذا نجد ان نظرية الفيض معقدة غامضه لبعدها عن سبيل البرهان الفلسفي.

٣ – النفس . النفس الكلية (التي صدرت عن العقل الاول الصادر عن الله مباشرة) تملأ العالم وتبعث فيه نشاطه . وتظهر النفس الكلية في كل كائن حي . اما نسبة النفس الكلية الى النفوس الجزئية (نفوس البشر والنبات والحيوان ...) فقد ضرب عليها افلوطين الامثال ، فقال مثلاً: ان النفس الكلية كالخاتم المنقوش ، اما النفوس الجزئية فهي «بصمات» هذا الخاتم في الكائنات المادية . ثم جاء افلوطين بتشبيه آخر فقال : ان النفس الكلية كنور الشمس المشرق على غرف متعددة ، ففي كل غرفة جزء من نور الشمس نفسه ، ولكنه ليس نور الشمس كله .

اما اتصال النفوس الجزئية باجسامها فيرجع عند افلوطين الى «هبوط النفس» من الملأ الاعلى الى الاجسام التي في الارض . فاذا اتصلت النفس بجسد انساني خضعت لشرور وعيوب كثيرة (يأتيها من قبل اتصالها بالمادة) . والنفس تحاول دائماً ان ترجع الى مصدرها الاول ، فان سلكت في جسدها سلوكا كاملاً رجعت الى مقامها الاول في الملأ الاعلى ، والا تقلبت من جديد في اجسام بشر آخرين او اجسام حيوانات او اجسام سماوية حتى تتطهر تماماً وتصبح خليقة بالرجوع الى عـالمها الاول .

٤ – التصوف . ويرى افلوطين ان النفس الجزئية تستطيع ان ترجع في اثناء الحياة لحظات معدودة الى النفس الكلية ، فتبلغ السعادة في اثناء حياتها هي . ولكن ذلك يحتاج الى رياضة خاصة . ثم ان هذا الاتصال لا يطول ولا يتكرر كثيراً . وقد ذكروا ان افلوطين بلغ هذه المرتبة من الاتصال اربع مرات في حياته كلها .

٥ – الاشراق والمعرفة . لننظر الى التصوف من ناحية ثانية : ان اتصال الانسان (او النفس الانسانية) بالنفس الكلية لحظات معدودة معناه ايضاً ، في رأي المتصوفة ، تخلص النفس لحظات معـدودة من امر الجسد ومن شوائب المادة. في هذه الحال يكون ادراك النفس الانسانية لحقائق الكائنات أصفى وأتم.

فالمعرفة في هذه الحال اذن لا تستمد عن طريق الحواس او من طريق التفكير المقصود ، بل تكون مباشرة من النفس الكلية الى النفس الجزئية رأساً وفي حال من الذهول (فقدان الحس بالعالم المادي) : هذا هو الاشراق ؛ انه ورود المعرفة على النفس مباشرة من الملأ الاعلى من غير ان تتطلبها النفس . وهذا النوع من المعرفة هو المعرفة الصحيحة .

آلُ أفلُوطِينَ

والشروح الاسكندرانية

وجاء بعد افلوطين تلاميذ له ثم انصار لمذهبه كثار . واهمية هؤلاء عظمى في تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ذلك لأن هؤلاء هم الذين فسّروا كتب الفلاسفة المتقدمين ، اي شرحوها وعلقوا عليها . ولا ينقص من تلك الاهمية ان هؤلاء شوّهوا هذه الكتب التي فسروها ، لأن هذا التشويه أيضاً قد اثر في الفلسفة الاسلامية ووقف حاجزاً دون تقدمها زمناً غير قصير .

ولم يكتف الاسكندرانيون عموماً بتشويه الفلسفة، بل نحلوا الفلاسفة الاقدمين كتباً برمتها . ومن اشهر ما يُشار اليه هنا كتاب « اوثولوجيا » (الالهيات) فانهم نسبوه الى ارسطو ، مع أنه في الحقيقة تلفيق للآراء الاسكندرانية ومن آراء افلوطين نفسه في الله والفيض والنفس على الاخص .

تلاميذ افلوطين

فرفوريوس الصوري فرفوريوس (٢٣٢ ـ ٣٠٤ م.) من اهل مدينة صور من الشام (القفطي ٢٥٦) ، وقد لقي افلوطين في اثناء رحلة له الى رومية (نحو ٢٦٢ م.) فاخذ عنه ثم اصبح اشهر تلاميذه .

ومع ان القفطي (ص ٢٥٦) قد نسب فرفوريوس الى النباهة في علم الفلسفة والتقدم في في معرفة كلام ارسطوطاليس ، فان ابن رشد لا يرى له هذه المرتبة (تهافت التهافت ٢٦٠) .

ولقد دافع فرفوريوس عن الدين القومي وهاجم التوراة مهاجمة عنيفة واقام الدليل على ان بعض اجزائها مكتوب في ازمنة متأخرة مما يتفق مع نتائج البحث الحديثة . و كذلك هاجم النصرانية ، وفيما يتعلق بتأليه المسيح على الاخص .

وقيمة فرفوريوس لا ترجع الى صحة آرائه الفلسفية ولا الى آرائه الفلسفية على العموم ، بل الى كثرة شروحه على كتب افلاطون وارسطو خاصة . وقد شغف فرفوريوس بالمنطق خاصة ، وله كتاب ايساغوجي اي مدخل علم المنطق (تهافت التهافت ٢٦٠) الذي سار مسير الشمس (القفطي ٢٥٧) في الشهرة . على انه اشتغل ايضا بالعلوم الطبيعية وبالتاريخ . وله كتاب في « اخبار الفلاسفة وقصصهم وآرائهم » شحنه بالغرائب والخرافات (راجع طبقات ٣٨ ، الخ) . وعلى كل فان فرفوريوس قد افتتح بشروحه على كتب افلاطون وارسطو وثاوفرسطس وافلوطين دور الشروح الاسكندرانية في تاريخ الفلسفة (١) .

ايامبليخوس أيامبْليخوس او يامبليخوس (ت ٣٣٠ م.) من اهل عنجر في البقاع (سورية) . كان احد تلاميذ فرفوريوس ومؤسس المذهب السوري المتفرع من المذهب الاسكندراني ، والذي لم يكن سوى مزيج من الافلاطونية المتأخرة والفيثاغورية المتأخرة .

حاول ايامبليخوس ان يبني من الآراء الاسكندرانية نظاماً وان يدخل فيه ما كان عند الاقدمين في الغرب والشرق من الآلهة والارواح الخيّرة او الشريرة . حتى الخوارقُ والمعجزات قبلها على انها جزؤ من نظامه ، وهكذا نراه قد اشتغل اكثر ما اشتغل بالماورائيات . والملاحظ عنده انه جعل « واحداً ثانياً » مع « الواحد » ،

(1) Vgl. Ueberweg I 610.

هذا «الواحد الآخر» الذي افترضه ايامبليخوس ليس الخير ـ كما افترض افلوطين ـ ولكنه « واحد » لا صفة خاصة له ، ولذلك هو عنده اسمى من « الواحد » الذي هو الخير . وكذلك جعل ايامبليخوس الوجود عالمين : عالماً عاقلاً ، وعالما معقولاً صادراً عن العالم العاقل . وكذلك جعل كل مظهر من مظاهر الوجود مقسوماً بضعة اقسام ، وكان يلقي على تفلسفه صبغة تصوفية .

الاسكندر الافروديسي كان الاسكندر الافروديسي من اشهر المشائين واعظمَ الناس دفاعاً عن ارسطو ، حتى انه يُسمّى ارسطو الثاني . «وقد فسّر اكثر كتب ارسطوطاليس ، وتفاسيره مرغوب فيها » في العصر القديم وفي الاسلام ايضا (طبقات ١ : ٦٩ ، ٥٤) . وكذلك امتدحه الشهرستاني (٣ : ٨٧) ، واستشهد به ابن رشد في تهافت التهافت ، وتبنّى رأيه في بضعة امور (ص ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٩٥) .

وتولى الاسكندر الافروديسي تعليم الفلسفة في اثينة بين ١٩٨ و ٢١١ م في ايام الامبراطور سبتيموس سفيروس .

ثامسطيوس كان ثامسطيوس (ت نحو ٣٩٠ م) من المشائين المتأخرين ، وقد بقي على دينه القومي ولم يصبأ الى النصرانية . اشتهر ثامسطيوس بتفاسيره وباختصاره لعدد من كتب ارسطو . ولكن لم يكن اتجاهه ارسطوطاليسياً خالصاً ، بل مازجه شيء من افلاطون ، حتى انه كان يوفق بين ارسطو وافلاطون ، بينما كان اكثر الذين سبقوه يرون ان فلسفة ارسطو تناقض فلسفة افلاطون .

الفصل الخامس

تنقل الفلسفة في البلاد

لا يرقى التفكير الا في بيئة حرة . فاذا اشتد الظلم في كل مكان ، ما هاجر التفكير الى مكان آخر . فاذا عاد هذا الظلم فاشتد في كل مكان اعتزل الفلاسفة كلٌ في بيته وانشأوا لأنفسهم حلقة ضيقة يعيشون فيها في سعة من آرائهم ونعمة من املهم بان هذه الآراء ستنتشر من هذا المكان الضيق الى مجالها الرحيب بعد حين .

تنقل الفلسفة في الغرب

لقد رأينا من قبل ان ما نسميه الفلسفة اليونانية لم ينشأ في اليونان نفسها ، بل في الملطيه على الشواطىء الغربية من آسية الصغرى ، ذلك لأن اليونان نفسها كانت ترزح في قيود من الوثنية يفرضها العامة بتقاليدهم وجهلهم في كل مكان . لذلك نشأت الفلسفة في الملطية حيث كان خطر العامة اخف وقيود الوثنية اقل . ولكن لما شاعت الفلسفة الايونية المادية واصطدمت بتقاليد العامة افتقد العامة فيها آلهتهم فلم يجدوها فازعجوا (١) الفلاسفة الايونيين عن بيئتهم الاولى ، فنشد هؤلاء الحرية في ايلية بجنوب ايطالية حيث انشأوا المذهب الايلي . وكذلك لما عظم الاضطهاد السياسي في جزيرة ساموس ـ موطن فيثاغوراس ـ هاجر فيثاغوراس بآرائه الى ايطالية ايضاً ، ثم هرب منها الى آسية الصغري . ومثل هذا كان شأن انكساغوراس حينما غادر أثينة لأن العامة هنالك اتهموه بالالحاد . ولما مات الاسكندر المقدوني وجد ارسطو من الحكمة ان يعود من أثينة الى بلده اسطاغيرا ، حتى لا يصيبه ما اصاب سقراط فيُسقى السّم . وكل ذنب لارسطو

---

(١) ازعج : زحزح ، ازال ، اخرج .

انه كان مؤدباً للاسكندر المقدوني ، والعامة يومذاك ناقمون على المقدونيين.

ولقد رأينا الفلسفة اليونانية تنتقل من أثينة واليها مرات تبعاً لانتشار الحرية او انقباضها بعد ان اصبحت أثينة عاصمة اليونان الثقافية والفنية والسياسية عملياً . ثم رأينا المذاهب الفلسفية تقوم في ماغارا وقورينا وغيرهما .

تنقل الفلسفة في الشرق

انتقلت الفلسفة من الغرب الى الشرق بعاملين اساسيين :

(أ) — لما بنيت الاسكندرية بنيت مدينة ترف وثقافة فازدهرت ، فانتقل اليها الناس وازدحمت بالعلماء والمفكرين .

(ب) — لما اتخذ قسطنطين الاول (٢٧٤ - ٣٠٦) النصرانية ديناً رسمياً لليونان بدأ اضطهادُ المفكرين . ثم جاء يوستينانوس الاول واضع الشرائع والقوانين المشهور فاغلق مدارس الفلسفة في أثينة (سنة ٥٢٩ م) مرة واحدة.

وهكذا كانت الفلسفة منذ بناء الاسكندرية تسير مُشرّقة حتى اغلقت مدارسها في اليونان فانتقلت الى الشرق .

١ - الاسكندرية بمصر

لما قام الاسكندر المقدوني بفتوحه بنى ثلاث عشرة مدينة سميت باسم « الاسكندرية » . الا ان الاسكندرية التي كانت بمصر كانت اعظمها وكانت تدعى « الاسكندرية العظمى » (ياقوت ١ : ٢٥٥ ، ٢٥٦) .

وقد عُرفت الاسكندرية العظمى بطيب مناخها وبازدهار الحياة فيها فرغب فيها الناس بعد ذلك حتى اصبحت داراً للحكمة ولتدريس الفلسفة (راجع القفطي ٣٤٩) . على ان الفلسفة كانت لا تزال في ذلك الحين تعلم في اوروبة ايضاً ، وفي رومية على الاخص . ولكن لما جاءت النصرانية بطل تعليم الفلسفة في رومية وبقي في الاسكندرية (طبقات ٢ : ١٣٥) ، ثم أخذ يضعف في القسطنطينية .

ونشأ في الاسكندرية مذاهب فلسفية كثيرة : الفيثاغورية المتأخرة والافلاطونية المُهَوَّدة ، والافلاطونية المتأخرة المعروفة بالمذهب الاسكندراني على الحصر. كل هذه المذاهب وسواها، مما نشأ في الاسكندرية، غلب عليها الاصطباغ بالدين ووضع العقائد الدينية الشرقية في تعابير من الفلسفة اليونانية قدر الامكان.

واشتهرت الاسكندرية باكثر فنون الفلسفة ، فالاسكندرانيون(١) هم الذين رتبوا بالاسكندرية دار العلم ومجالس الدرس الطبي ، وكانوا يقرأون كتب جالينوس الطبيب اليوناني (ت ٢٠١ م) ويرتبونها ترتيباً ظل متبعا حتى ايام القفطي (ت ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م) . فمن الاطباء الاسكندرانيين المشهورين انقلاؤس واصطفن وجاسيوس ومارينوس وفوليس وماغنس (القفطي ٣٥٦ ، ٢٦٢ ، ٣٢٢).

وكذلك اشتهرت الاسكندرية بالرياضيات والفلك ، فان اقطيمن وميطن اجتمعا في الاسكندرية واشتركا في رصد النجوم (القفطي ٦٨ ، ٦٩ ، ٣٢١) . وحسبك ان تعرف من الفلكيين الاسكندريين بطلَيموس القلوذي (بطولوميوس كلوديوس) صاحب المجسطي اشهر كتب الفلك في العصور الاولى ، ثم اقليدس صاحب كتاب الهندسة المشهور . ثم هنالك ابولونيوس النجار ، وهو رياضي قديم من اهل الاسكندرية قبل اقليدس وله كتاب المخروطات. وهنالك ايضا رياضيون آخرون كانت نشأتهم وشهرتهم في الاسكندرية .

٢ - انطاكية بالشام

واشتهر في انطاكية منذ اواسط القرن الرابع الى اواسط القرن الخامس مذهب لاهوتي (فقهي) مسيحي ، كان من اشهر رجاله ديودوروس اسقف طرسوس (ت ٣٩٤ م) ، ثم تلميذه يوحنا المشهور بفم الذهب اسقف القسطنطينية

---

(١) القفطي ٧١ .

(ت ٤٠٧ م) . ومع ان هذا المذهب مذهب ديني محض ، فانه يشترك مع المذهب الاسكندراني في أنه يحاول ان يدافع عن العقائد النصرانية بنوع من الادلة .

وكان للانطاكيين فضل على الفلسفة اليونانية ، فان اول ناقل لكتب الفلسفة اليونانية من السريان نعرفه باسمه كان بروبوس (١) ، وهو قسيس وطبيب عاش في انطاكية في النصف الاول من القرن الخامس للميلاد . ولعل عمله الاول كان مقصوراً على شرح كتب ارسطو المنطقية او كتاب أيساغوجي لفرفوريوس .

ويظهر مما ذكره ابن ابي أصيبعة (طبقات ١ : ١٦٦ ، ٢ : ١٣٥) ان التعليم الفلسفي ظل في الاسكندرية حتى جاء عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ = ٧٢٠ م) فنقله الى انطاكية .

تنازع المذاهب المسيحية

تنازعت المذاهب المسيحية منذ القرن الاول للميلاد على امور عقائدية سنوردها هنا بايجاز (١) .

كان النزاع الاول يدور حول المسيح نفسه : أآله هو؟ فقال سمعان السامري الذي بلغ أشده عام ٣٥ م . ان مريم والدة عيسى عليهما السلام ، وان المسيح هو ابن الله (او كلمته) . ولذلك كان سمعان هذا يميز بين شخص عيسى (يسوع) وبين شخصية المسيح ، وانكر ان يكون المسيح هو الذي صُلِبَ «بل شُبِّه به» (رقم ١) . وتبعه في ذلك تلميذه كارنتوس (رقم ٢) . ومن اتباع سمعان ايضاً رجل اسمه ابيون «كان ينكر لاهوت المسيح . . . . ويقول انه بشر مثل بقية الناس» (رقم ٥) . ولما بدأ القرن الثاني للميلاد قام باسيليوس الاسكندري يقول ان المسيح لم يأت بناسوت حقيقي وانه لم يصلب . بل ان الذي صلب

---

(١) Probus ، راجع ده بور ١٩ .

(١) اعتمدت في ذلك كله كتاب ديوان البدع للمطران جرمانوس فرحات (مخطوط) ، مع شدة تحامله على من يخالفه في الرأي .

مكانه كان سمعان القروي (رقم ٩) . ثم جاء اكسايوس تلميذ باسيليوس وقال ان المسيح انسان بسيط كباقي الناس (رقم ١٠) . وزعم كربوقراتوس الاسكندري ان المسيح ولد من يوسف النجار كباقي الناس (رقم ١١) . ثم جاء كردون او شردون (رقم ١٣) وقال ان المسيح لم يصلب ولا مات ولكن شُبه به . وجاء تاوردسيوس البيزنطي (رقم ٢٢) و « كان يقول ان الكلمة الالهي (كذا)حل في المسيح كما يحل في انسان ما بسيط » .

وقام رجل اسمه ساويرس سنة ١٧٤ م (رقم ٢٣) فنفى التوراة ثم انكر القيامة (اي نهوض المسيح من الموت ـ لانه لم يصلب) . وفي العام نفسه قال تسيانوس السرياني بان المسيح اتخذ جسداً خيالياً لا حقيقة له ، ثم قا بان الانجيل قد تغيّر وتبدّل لذلك جمع تسيانوس الاناجيل الاربعة وحذف منها ما يشهد بان المسيح من نسل داود واشياء اخرَ ، واختصرها انجيلا واحداً (رقم ٢٨) .

وفي سنة ١٩١ م بوزت فكرة جديدة ، فقد قال بركسياس (رقم ٣٣) ان اللاهوت اقنوم واحد هو الاب ، وانه تألم وصلب ، وتبعه في ذلك سابليوس العكاوي (رقم ٤٤) «وكان يجدّف على الثالوث وينفي تميز الاقانيم الثلاثة ويقول : ليس الا اقنوم واحد ... اي اله واحد. ومثله قال نانيوس الاسميري (رقم ٤٥) .

ومنذ القرن الاول للميلاد قال كارنتوس (رقم ٢) ان الملائكة اشرف من المسيح ، وتبعه في ذلك شيعة الملائكين (رقم ٤٦) وعللوا ذلك بان المسيح كان انساناً محضاً . ثم جاء بولس السميسطائي اسقف انطاكية، وكان يعتقد ان المسيح رجل صِدّيق وليس آلها (رقم ٤٧) .

وبُعدَ اريوس الاسكندري (رقم٥٠) صاحب اتجاه جديد فقد قال سنة ٣١٠م ان المسيح ليس آلها ولكنه مخلوق من لا شيء ، وهو كسائر الناس . وقد انتشر رأي اريوس حتى عمّ ولم تسلم منه الا رومية .

نسطور ولد في مرعش (شمالي سورية) واشتهر في انطاكية بالتقوى والوعظ حتى اقيم اسقفا على القسطنطينية نفسها . وكان نسطور (رقم ٨٩) يقول ان مريم (ع) والدة المسيح لا والدة الله ، لأن الله لا يمكن ان يولد من انسان . وكان افتيشيوس اوطاخي (رقم ٩٣) من اشهر اتباع نسطور ، وكان يقول ان المسيح اقنوم واحد فيه طبيعة واحدة لكنها ليست مثل طبيعتنا ، ويزعم ان المسيح تألم وصلب ومات وقبر . وتوفي نسطور عام ٤٤٠ م .

يعقوب البردعي يعقوب البردعي (ت٥٧٨م) او البرادعي ملقب «بزلزل» لانه زلزل الايمان الكاثوليكي في بلد سورية وآسيا ، بل هدمه أسّا على اسّ» (رقم ١٠٣). وقد كان مدار اعتقاد يعقوب البردعي ان جسد المسيح غير قابل للآلام ، وان ما ذاقه من الآلام في الصلب كان خياليا لا حقيقة له » .

بحيرا وكان سرجيوس بحيرا (ت ٦١٨ م — ٤ قبل الهجرة) راهباً نسطورياً في نجران التي هي قرب دمشق ، وكان يقول ان المسيح لم يُصلب ولم يمت ، بل شُبِّهَ به (رقم ١١٨) .

الامبرطور هرقل هِرَقلُ هذا هو الامبراطور البيزنطي الذي حارب الفرس الساسانيين ثم حاربه العرب على اليرموك بقيادة خالد بن الوليد وابي عبيدة عامر بن الجراح .

لما تولى هرقل عرش القسطنطينية (٦١٠م = ١٢قبل الهجرة) كانت الامبرطورية البيزنطية على غاية من الاضطراب . على ان اشد العوامل خطراً كانت النزاع الديني بين النساطرة وبين اليعاقبة ، ثم بين هؤلاء جميعاً وبين الكنيسة القائمة :

(أ) كان نسطور قد قال بان في المسيح طبيعتين ومشيئتين : طبيعة الهية (لأنه بزعمه ابن الله) وطبيعة بشرية لأنه ابن مريم عليها السلام ، وبالتالي كان للمسيح مشيئتان : احداهما الهية والثانية بشرية ايضاً .

وكان النساطرة غالبين على الموصل والعراق وفارس وخراسان (في آسية).

(ب) وكان اليعاقبة يرون ان الطبيعة الآلهية والطبيعة البشرية قد اجتمعتا في المسيح واتحدتا.

وقد غلب اليعاقبة على مصر والنوبة والحبشة (افريقية)، وكانت منهم اقلية في الشام (سورية) والعراق.

(ج) وهنالك كثيرون من ذوي النفوذ الديني كانوا يقولون بان المسيح كان بشراً كسائر الناس وانه ليس الهاً.

(د) وكانت الكنيسة القائمة في رومية تقول «ان في المسيح اقنوماً واحداً، وان ابن الله هو عينه ابن مريم العذراء من اول دقيقة الحبل به، وان مريم العذراء والدة الله حقاً» (رقم ٨٩ — نحو الآخر).

ولقد كان للكنيسة انصار في كل مكان في آسية وافريقيه — بالاضافة الى اوروبة — وخصوصاً بين الاكليروس الذين كانت تنصبهم الكنيسة على اسقفيات البلاد المختلفة.

وهكذا وجد هرقل ان الامبرطورية في خطر عظيم من جراء هذا النزاع الديني فاحب ان يتلافاه. وظن هرقل ان باستطاعته ان يجمع هذه المذاهب المتنافرة ويردّها كلها مذهباً واحداً اذا هو ارضى اصحابها باخذه شيئاً من كل مذهب. ولكنّ عمل هرقل زاد الطين بلّة، فقد تمسك كل صاحب مذهب بمذهبه، ثم نشأ مذهب جديد هو المذهب الملكي، اي المذهب الرسمي للامبرطور وللدولة.

٣ — الرها ونصيبين وغيرهما

انشأ السريان، وهم سكان ما بين النهرين (شمالي العراق)، نحو خمسين مدرسة لهم تعلم اللاهوت (الفقه المسيحي) في الاكثر وتعلمه باللغة السريانية. وكانت

الرها ونصيبين مدرستين للنساطرة تدرّسان الثقافة اليونانية باللغة السريانية، وتبسطان نفوذهما من شمالي سورية الى غربي فارس.

وظلت الرها زمناً طويلاً مركزاً للثقافة السريانية حتى جاء الامبراطور زينون الايسوري ملك الروم فاغلقها اذ اتهم اهلها بتطرّفهم في آرائهم. فانتهز الفرس الساسانيون هذه الفرصة واستمالوا اليهم نساطرة الرها لاسباب سياسية بحت واعادوا لهم فتح مدرستهم في نصيبين، فجعل النساطرة من هذه المدرسة حصناً للجدل يرفعون فيه الفلسفة السفسطائية فوق كل علم ويزعمون ان القسيس طبيب الروح وان الطبيب مرقع الجسد. وظل الطب مقصوراً على غير رجال الدين، ثم بلغ الحقد والتعصب بمعلمي مدرسة نصيبين الى ان حظروا (عام ٥٩٠ م) قراءة الكتاب المقدس في كل مكان فيه كتب غير دينية.

ومنذ القرن الخامس للميلاد اخذ هؤلاء السريان يدرسون فلسفة ارسطو خاصة، ثم اخذوا ينقلونها من اليونانية الى السريانية. واهتم الرهاويون خاصة باللاهوت والطب والمنطق، على ان هذا لم يمنعهم من نقل بعض كتب ارسطو في غير المنطق وبعض كتب افلاطون وفيثاغوراس.

ويجب ان نذكر ان اهل الرها ونصيبين كانوا من السريان النساطرة، اما اليعاقبة فكان مركزهم في رأس عين وقِنّسرين على الفرات، ثم يحسن ان نعرف ان ما نقله هؤلاء كلهم من الفلسفة اليونانية كان مصطبغاً بميولهم الدينية ومشوّهاً في بعض الاحيان حتى يوافق هذه الميول، اما قصداً او انسياقاً مع العاطفة. من ذلك مثلاً زعمهم ان افلاطون تلقى الفلسفة على مار بولس احد حواريّي المسيح، وانه ترهب في بادية الشام وظل يفكر حتى خرج ببراهين جديدة على التثليث.

٤ — حرّان

حران مدينة في الجزيره، ما بين النهرين، قريبة من الرها. واهلها سريان

صائبة وثنيون يعبدون الكواكب بخلاف اهل الرها ونصيبين الذين كانوا نصارى . ولقد كان اهتمام الحرانيين بالرياضيات والفلك ، وبذلك شُهروا . وكان منهم ايضاً اطباء (راجع القفطي ١١٧ ، ٢٤٣ ، ٣٦١) . وكانت حران معروفة قبل الاسلام ، ثم لما جاء الاسلام زاد ازدهارها وخصوصا بعد ان نقل عمر بن عبدالعزيز تدريس الفلسفة من الاسكندرية ووزعه في انطاكية وحرّان.

ولقد كان الخطر من فساد التعليم في حران اقل منه في الرها ، ذلك لأن الحرانيين كانوا ميالين الى الرياضيات، ومجال التبديل في الرياضيات قليل . ثم انهم كانوا وثنيين ولذلك كانوا اشد تقبّلا لآراء الفلاسفة اليونان من زملائهم النصارى.

ومع ان اهل حران مالوا في الاكثر الى العلوم الاشوريه والبابلية ، لشدة اتصالهم واتصال اسلافهم بذلك ، فانهم قد اخذوا ايضاً من الثقافة اليونانية قسطاً وافراً .

٥ - جنديسابور

جنديسابور مدينة في خوزستان (الاهواز - جنوبي غربي فارس) بناها سابور الاول واسكن فيها اسرى من اليونانيين . ثم جاء يوستنيانوس ملك الروم فاضطهد الفلاسفة الذين تمسكوا بالمذهب الاسكندراني واخرجهم من امبرطوريته فذهبوا الى فارس ، فاستقبلهم كسرى انوشروان وبنى لهم مارستاناً (مدرسة طبية) ليستفيد منهم وليغيظ بهم عدوه يوستنيانوس .

واشتهرت جنديسابور بالطب خاصة ، وكان أهلها ذوي حذق في هذه الصناعة حتى اعتقدوا انهم اهل هذا العلم دون الناس ، فلم يكونوا يخرجونه عنهم ولا عن اولادهم وابناء جنسهم . وقد كان تطبيبهم افضل من تطبيب الهنود واليونانيين لانهم اخذوا افضل ما عند هؤلاء وهؤلاء (راجع القفطي ١٣٣ ، ١٧٤) .

وقد بلغت جنديسابور في الطب شهرة عظيمة وأمّها الاساتذة من كل صوب، ولكنهم كانوا يعلمون العلم اليوناني خاصة باللغة السريانية واحياناً بالفهلوية ،

اي الفارسية القديمة . واستمرت مدرسة جنديسابور (او مارستانها علـى الاصح) مزدهرة الى ايام العبـــاسيين .

*

ولمدارس السريان خاصة اثر عظيم في اتجاه الفلسفة الاسلامية ، ذلك لأن اكثر الكتب التي نقلت فيما بعد الى العربية كانت قـد نقلت قبل ذلك الى اللغة السريانية . ثم ان اكثر الاطباء والناقلين في بلاطات الخلفاء العرب كانوا من اهل هذه المدارس السريانية ، في جنديسابور او الرها على الاخص .

الفصل السادس

النَقل والنَقَلة

في تاريخ الفلسفة الإسلاميّة

*

منذ ان فتح العرب عيونهم على التراث القديم اخذوا ينقلون كتبه الى لغتهم ويبذلون في ذلك الجاه والمال ، حتى انهم كانوا يدفعون ثقل الكتاب المنقول ذهباً .

بواعث النقل كانت البواعث على نقل الفلسفات الى اللغة العربية جمة :

أ – احتكاك العرب بغيرهم من الامم . لما احتك العرب بغيرهم من الامم ادركوا ان عند تلك الامم ثقافات يحسن الاستفادة منها .

ب – حاجتهم الى علوم ليست عندهم . جاء الاسلام بفروض كثيرة من الصيام والصلاة والحج مما يحتاج الى حسبان وتقويم ، فاحتاج المسلمون الى علوم تسهل عليهم هذا الحسبان فنقلوا الى العربية كتب الرياضيات والفلك خاصة . وكذلك احتاجوا في اول امرهم الى الطب ، لأن الطب العربي كان مبنياً على الاختبار وحده لا على العلم والاختبار معاً ، وكان يصيب احياناً ، الا ان المعالجة به لم تكن دائمة ذات نتائج سريعة .

ج – القرآن الكريم وحثه على التفكير . والقرآن الكريم مملوء بالآيات التي تحث على التفكير في خلق السموات والارض وفي تركيب جسم الانسان . فاذا اضفنا ذلك الى رغبة الانسان الطبيعية في البحث عن المجهولات ، ادركنا ان حث القرآن للمسلمين على التفكير في العالم الذي حولنا كان باعثاً قوياً على طلب العلم .

ان القرآن الكريم يحث المسلمين على التفكير في السموات والارض وفي انفسهم وفي كل ما حولهم ، فمن ذلك قوله في سورة آل عِمران (٣ : ١٨٩ - ١٩١) : « ولله مُلكُ السموات والارض ؛ والله على كلِ شيء قدير . ان في خَلْقِ السموات والارض واختلافِ الليل والنهار لآياتٌ لأولي الألباب: الذين يذكرون الله قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبهم؛ويتفكرون في خلق السموات والارض: ربَّنا، ما خَلقتَ هذا باطلاً ، سُبحانَكَ فَقِنا عذاب النار » . ثم هنالك آيات تدعو الى التفكير والتفقه وتحض على العلم ، تعيا على الحصر .

ولقد عرض ابن رشد لهذه الناحية في مطلع رسالتيه : فصل المقال . . . . » و « الكشف عن مناهج الادِلة . . . . » .

د - العلم من توابع استبحار المدنية . حينما تزدهر البلاد سياسياً واقتصادياً ويكثر فيها الترف ويستبحر العمران تتجه النفوس ايضاً الى البحث في العلم والى التفكير ضرورة ، ولم يشذّ العرب عن ذلك .

فالدين الاسلامي اذن واتساع الامبرطورية وحاجة العرب الى ما عند الامم من العلوم كانت من اقوى البواعث على طلب الفلسفة ونقل كتب العلم الى اللغة العربية .

بدء النقل لا شك في ان النقل من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية قد بدأ في زمن متقدم جداً . ونحن نشير الى ذلك هنا وان لم يكن ذا صلة كبرى بموضوع نقل الفلسفة .

(أ) يذكر بروكلمان (١) ان اول نقل الى العربية يجب ان يكون قد حدث قبل الاسلام ، ان بعض أعدادِ (جُمل) الانجيل قد نقلت الى العربية منذ الجاهلية .

على ان المناسبات التي اقتضت النقل كانت كثيرة جداً ، فنحن نعلم ان وفود العرب

(1) GAL, Suppl I 362 - 3.

كانت تتردد الى بلاط كسرى ، وان الغساسنة كانوا متصلين بالروم ، وان امرأ القيس قد ذهب الى القسطنطينية . ثم ان نفراً من المسلمين الاولين هاجروا الى الحبشة . اضف الى ذلك كله ان محمداً رسول الله قد امر نفراً من المسلمين ان يتعلموا العبرية ، وقد تعلمها بعضهم . ان كل هذا يقتضي بلا ريب نقلا من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية ومن اللغة العربية الى اللغات الاجنبية .

ونحن اذا تأملنا الآداب العربية القديمة وجدنا جملة صالحة من الحكم والقصص التي ترجع الى اصل اعجمي هي عبرية ويونانية وفارسية كامثال داوود وسليمان ، والحكم اليونانية والقصص الفارسية . الا ان هذا كله قليل الصلة بموضوعنا ، لأن اكثره نقل شفهي لا نعرف اليوم اصوله التي نقلت ولا نعرف الذين نقلوه . بل لا نعرف كيف جرى النقل فيه .

(ب) وهنالك النقل المقصود لكتب العلم والفلسفة من اليونانية في الاكثر الى اللغة العربية .

تجمع المصادر والمراجع على ان اهتمام العرب بالعلوم اليونانيه خاصة بدأ منذ العصر الاموي. وهم يذكرون ان خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥ﻫ (٧٠٤م) لما يئس من الفوز بالخلافة بعد انتقال الخلافة من الفرع السفياني الى الفرع المرواني انقلب الى العلم ودرس الكيمياء خاصة على راهب اسكندراني اسمه مريانوس ، ثم امره بنقل كتب الصنعة (الكيمياء) الى العربية (١) . وكذلك بدأ نقل كتب الطب في العصر الاموي ايضاً، على انه لم يصلنا شيء مكتوب من العصر الاموي.

ومن ابرز ميزات الدور الاول للنقل الذي انتهى في خلافة ابي جعفر المنصور (ت ١٥٨ ﻫ = ٧٧٥ م) ان الافراد كانوا يقومون بالنقل رغبة منهم هم في ذلك كما فعل عبدالله بن المقفع المشهور (ت ١٤٢ ﻫ = ٧٥٩ م) حينما نقل بعض كتب السلوك من الفارسية الى العربية . وينسب لعبدالله بن المقفع هذا نقل بعض كتب ارسطو في المنطق ، ثم كتاب ايساغوجي لفرفوريوس وشيئاً من الطب (من

---

(١) راجع الفهرست (المطبعة الرحمانية ـ مصر) ص ٤٩٧ .

اللغة الفارسية) الى اللغة العربية (١). ولكنْ لعل هنالك رجلاً آخر اسمه عبدالله ابن المقفع (بن ساويرس) نقل كتب الفلسفة والمنطق والطب التي يُنسب نقلها وهماً الى عبدالله بن المقفع صاحب كتاب كليلة ودمنة .

ومنذ ايام ابي جعفر المنصور اصبح النقل في رعاية الدولة ، وعلى ذلك سار هرون الرشيد وعبدالله المأمون . وحينئذ اتسعت حركة النقل من اليونانية الى العربية .

اتساع النقل الى العربية « كانت الفلسفة ظاهرة في اليونان والروم (البيزنطيين) قبل شريعة المسيح عليه السلام . فلما تنصرت الروم مُنعوا منها ومُنع الناس من التكلم في شيء من الفلسفة ، اذ كانت بضد الشرائع النبوية. ثم ان الروم ارتدت عائدة الى مذهب الفلاسفة . . . . ثم عادت النصرانية الى حالها » فعاد المنع عن كتب الفلاسفة وخُزنت تلك الكتب في اقبية مُوصدة حتى لا تصل اليها الايدي (راجع الفهرست ٣٣٧) .

ومنذ ايام المنصور اخذ المسلمون يتتبعون كتب العلم والفلسفة في اللغة اليونانية لينقلوها الى اللغة العربية وكانوا يبذلون في ذلك الاموال. وكان بعض اثرياء المسلمين يذهبون الى بلاد الروم ويصطحبون معهم افراداً يحسنون اللغة اليونانية ليشتروا لهم الكتب الفلسفية ، كبني المنجم مثلاً على ما سيأتي في مكانه .

ولما جاء المأمون اتسعت دائرة النقل كثيراً فأنشأ « دار الحكمة » في بغداد ووقف عليها الاموال للذين يريدون ان ينقطعوا الى نقل الكتب الفلسفية الى اللغة العربية . اما سبب اتساع تلك الحركة في عهد المأمون فهو ان المأمون لما انتصر على الروم (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م) وعلم بكتب الفلسفة المخزونة عندهم اهتبل الفرصة واحب ان يأخذ في شروط الصلح مكان المال كتباً . وقد ظن توفيل (ثيوفيلوس) ملك الروم ذلك كسباً . اما المأمون فعدّه نعمة كبرى.

(١) الفهرست ٣٣٧ س ، طبقات ١ : ٣٠٨ ، القفطي ٢٢٠

على ان مؤرخي العرب يرون في طلب المأمون لكتب الفلسفة اليونانية قصة ، هي ان الخليفة المأمون رأى في المنام (١) ارسطوطاليس وكلمه في امور واعجب به . فلما استيقظ تعلقت همته بنقل الكتب اليونانية فكتب الى ملك الروم يطلب منه كتباً لفلاسفة اليونان . وكان ملوك اليونان لما انتصرت النصرانية في بلادهم قد جمعوا كتب الحكمة من ايدي الناس وجعلوها في هيكل قديم وأغلقوا بابه . ففتح ملك الروم هذا الهيكل وارسل خمسة احمال من كتب الحكمة الى المأمون ، بعد ان كان طول الزمن قد افسد كثيراً من هذه الكتب بالرطوبة والعث . . .

فنقل كتب الفلسفة اليونانية الى اللغة العربية لم يجر اتفاقاً ولا اعتباطاً ، وانما كان سياسة للدولة وحباً بالعلم من الافراد .

اتجاه النقل ومما يدل على تفهم العرب للحركة العظيمة التي كانوا يقومون بها انهم بدأوا ، اول ما بدأوا ، بكتب العلم العملية لا بكتب الفلسفة النظرية . لقد كان العرب في اول امرهم بحاجة الى كتب الرياضيات والفلك لتعيين مواقيت الصوم والصلاة والحج ، والى كتب الطب لصلاح ابدانهم فبدأوا بنقل هذا النوع من الكتب اولاً .

ولما كثرت لديهم كتب العلوم اتجهوا صوب كتب الفلسفة النظرية ليتمموا اداء رسالتهم الثقافية .

طبقات النقلة ان الذين اشتغلوا بنقل كتب العلم والفلسفة الى اللغة العربية كانوا طبقات . ومع ان هؤلاء قد وضعوا كتباً وضعاً فوق ما نقلوا ، فاننا لن نعالج انتاجهم الا على انه « نقل » فقط ، لا تأليف . وسبب ذلك امران : اولهما انه لم يكن لهم آراء تستحق الدرس ، فان كل ما ذكروه في الكتب التي ادعوا

(١) الفهرست ٣٣٩ ، راجع القفطي ٢٩ — ٣٠ .

انهم وضعوها انما هو مُنتزع من الكتب اليونانية التي اختصروها او شرحوها او نقلوها مع شيء كثير من الغموض. اما ثاني السببين فهو ان هؤلاء جميعاً قد قاموا باعمالهم تكسباً للمال: ان كتبهم هذه لم تمثل نزعاتهم الفكرية بل مثلت اهواء الذين كانوا يطلبون منهم نقل الكتب التي نقلوها ، وكثيراً ما اتفق ان ينقل الطبيب كتاباً في الرياضيات او ما وراء الطبيعة ، او ان ينقل الرياضي كتاباً في الطب او السياسة.

وفيما يلي اجمال لطبقات النقلة :

١ – كان هناك افراد منذ العصر الاموي نقلوا الكتب ابتداءً من عند انفسهم او بطلب من غيرهم ، من هؤلاء جميعاً اصطفن القديم (الفهرست ٣٤٠ س) وهو اصطفن الاسكندراني (طبقات ١٠٣ س) ، ثم عبدالله بن المقفع (١) .

٢ – آل ماسرجويه . اولهم ماسرجويه الطبيب وكان يهودي الدين سرياني اللغة بصري الدار . ويقال انه بدأ بالنقل منذ ايام الدولة الامويه قبل خلافة عمر ابن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) . وعُمِّرَ ماسرجويه حتى عاصر ابا نواس . وقد نقل ماسرجويه كتاب القس اهرن بن أعين الطبيب الاسكندراني . ولما سرجويه ايضاً كناش (مجموع) في الغذاء وكتاب في العين .

٣ – آل بختيشوع ، وهم نصارى نساطرة كانت لغتهم السريانية. وقد اشتهر منهم ستة اجيال اشتغلوا بالطب :

(أ) جورجيس بن بختيشوع . كان جورجيس طبيباً ماهراً ، وكان رئيساً للاطباء في مارستان (٢) جنديسابور ، استقدمه المنصور سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) الى بغداد ليداويه، ثم جعله طبيبه الخاص. وكان جورجيس ناقلاً من اللغة اليونانية الى اللغة السريانية . ويقال ان له كناشاً مشهوراً (مجموعاً في الطب) نقله حنين بن

---

(١) راجع الكلام على ابن المقفع ومدى نقله الكتب في دراسات قصيرة.. «عبدالله بن المقفع» للمؤلف

(٢) مارستان او بيمارستان تركيب مزجي فارسي معناه المستشفى في الاصل . اما وجه اشتقاقه فغامض الدلالة : مار: الحية ، ستان : المكان Station ، اما بي في بيمارستان فمعناها: بلا (الباء حرف جر ، ولا النافية) .

اسحق الى العربية .

(ب) ابنه بختيشوع بن جورجيس . لما ترك جورجيس جنديسابور خلفه ابنه بختيشوع هنالك على المارستان. ولكن و لما مرض الهادي سنة ١٧٠ هـ استدعِيَ بختيشوع الى بغداد ولكنه عاد بعد موت الهادي الى جنديسابور. ثم لما مرض الرشيد اتِيَ به مرة ثانية ونال عند الرشيد حظوة فجعله الرشيد رئيس الاطباء . وقد توفي سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) .

(ج) جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس ، كان طبيباً كابيه خدم هرون الرشيد ثلاث وعشرين سنة ثم خدم الامين والمأمون . وله كتب موضوعة منها : رسالة في المطعم والمشرب - رسالة مختصرة في الطب - كتاب في صنعة البخور .

(د) بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع ، كان في ايام الواثق والمتوكل ، وتوفي في اواخر صفر ٢٥٦ (آخر كانون الثاني ٨٧٠ م) . وله كتاب في الحجامة على طريق المسألة والجواب .

(هـ) جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع (ت ٣٩٦ هـ = ١٠٠٦ م) ، كان حسن الدراية في الطب موفقا في التطبيب . وله تصانيف جليلة في صناعة الطب ، منها : كناشه الكبير الملقب بالكافي - رسالة في ألم الدماغ بمشاركة فم المعدة والحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وآلات التنفس المسمى ذيافرغما - كتاب المطابقة بين قول الانبياء والفلاسفة - مقالة في الرد على اليهود .

(و) - عبيد الله بن جبرائيل (ت بعيد ٤٥٠ = ١٠٥٨ م.) ، كان طبيباً ماهراً كأهله ، عارفاً بعلوم الفلاسفة ، له من الكتب : مقالة في الاختلاف بين الالبان - كتاب مناقب الاطباء - الروضة الطبية - طبائع الحيوان .

٤ - آل ماسويه . كان ماسوية تلميذاً (يعني متمرناً) في مارستان جنديسابور ، فغضب عليه جبرائيل بن بختيشوع واخرجه منه . فجاء ماسويه الى

(1) Diaphragm

بغداد واختص بالتكحيل (تطبيب العيون) ولقي توفيقاً عظيماً. وكان مسيحياً سريانياً .

وجاء بعد ماسويه ابنه ابو زكريا يوحنا بن ماسويه،وكان فاضلاً خبيراً بصناعة الطب،ولاه الرشيد ترجمة كتب يونانية وجدها في انقرة وعمورية (ت في سامرّا ، ٤ جُمادى الآخرة ٢٤٣ = ٨٥٧ م). وليوحنا بن ماسويه تصانيف مشهورة ، منها: كتاب البرهان - كتاب الحميات - كتاب الاغذية والاشربة - كتاب في الجذام، لم يسبقه احد اليه - كتاب الادوية المسهلة - كتاب السموم وعلاجها - كتاب تدبير الاصحاء - كتاب تركيب خلق الانسان (تشريح) - كتاب الحيلة للبرء.

وكان ميخائيل بن ماسويه (اخو يوحنا) طبيباً مقتدراً معتداً بنفسه لا يقيم وزناً لغيره من الاطباء ، ولكنه يصيب التطبيب .

٥ - آل حنين (انظر : حنين بن اسحق واسحق بن حنين) .

٦ - آل ثابت بن قُرّة (انظر : ثابت بن قرة وسنان بن ثابت بن قرة) .

٧ - بنو موسى المنجم ، هم محمد واحمد والحسن بنو موسى بن شاكر، كانوا كثيري الاهتمام بنقل الكتب الى اللغة العربية ولا سيا كتب الرياضيات . غير انهم لم يكونوا ينقلون بانفسهم بل كانوا يوكّلون ذلك عدداً من النقلة كحنين ابن اسحق وحُبيش بن الاعسم وثابت بن قرة وغيرهم فيرزقونهم خمسمائة دينار في الشهر للنقل والملازمة .

غير انهم كانوا معروفين ايضاً بالعلم والفضل وكانوا من الحسّاب المشهورين ولهم ارصاد وتصانيف كثيرة . (طبقات ١ : ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٩ و ٢ : ٢٢٠) .

٨ - وهنالك نقلة كثيرون ، منهم :

(أ) - الحجاج بن يوسف بن مطر (المطران) الحاسب الورّاق .

(ب) - يحيى بن البطريق (ت ٢٠٠ هـ = ٨١٥ م) .

(ج) - عبد المسيح بن عبدالله الناعمي الحمصي (ت ٢٢٠ هـ = ٨٣٥ م) .

(د) – حُبيش بن الحسن بن الاعسم الدمشقي (ابن اخت حنين) كان في بلاط المتوكل .

(ﻫ) – ابو بشرمتى بن يونس القنائي (ت ببغداد ٣٢٨ ﻫ = ٩٤٠) .

(و) – ابو علي بن اسحق بن زرع ، يعقوبي النِحلة ، فيلسوف وطبيب ، نقل كتباً في الطب وكتباً في الفلسفة (ت ٣١٨ ﻫ = ٩٣٠ م .) .

(ز) – وهنالك قسطا بن لوقا ويحيى بن عدي وسنأتي ترجمتها بالتفصيل . وهنالك غيرهما أيضاً .

طريقة النقل للنقل طريقان :

(أ) – الطريقة اللفظية ، وهي طريق يوحنا بن البطريق وعبد المسيح بن الناعمة الحمصي ، وذلك ان يأتي الناقل الى النص وينظر في كل كلمة بمفردها ثم يضع تحتها مرادفها حتى ينتهي من جملة ما يود نقله .

هذه الطريقة رديئة لوجهين : احدهما ان كثيراً من الكلمات في كل لغة لا مرادف لها في سائر اللغات ، ثم ان لكل لغة تركيباً اسنادياً (تركيباً للجمل) يخالف سائر اللغات . اضف الى ذلك ان المجازات والتشابيه والاستعارات تختلف بين لغة ولغة . وكانت المشكلة الكبرى ان النقلة لم يكونوا يستطيعون النقل من اليونانية الى العربية رأساً ، فكان بعضهم ينقل الكتب من اليونانية الى السريانية ، ثم يأتي آخرون فينقلونها من السريانية الى العربية من جديد . ولكي ندرك سيئات هذه الطريقه نضرب المثل التالي :

للروائي الانكليزي وليم شكسبير رواية اسمها هملت فيها شطر من الشعر سننقله بالطريقة اللفظية ، ننقله الى الافرنسية ثم من الافرنسية الى العربية (كما كانت الكتب الفلسفية تنقل احيانا من اليونانية الى السريانية ثم الى العربية) :

To be, or not to be : That is the question :
être ou ne pas être : c' est la question :
سؤال الـ هو هذا الكون لا او الكون

ان النقل اللفظي لا يؤدي المعنى هنا ابداً ، كيفما اردت ان تركب هذه الكلمات ، حتى لو اقتضى الحال ان تبدل بعضها . . اما المعنى الذي قصده الشاعر فهو :

القضية قضية حيـــاة او موت !

فاذا كان هذا حال النقل اللفظي في جملة واحدة ، فكيف يكون امر نقل كتاب برُمته على هذا الاساس ؟

من هـذه الطريقة تسربت اكثر الاخطاء التي ضللت العرب وشغلتهم زمنا طويلا ثم تنبهوا لها بعد حين. وهكذا احتاج كثير من الكتب التي نقلت على هذه الطريقه الى ان تصلح فيما بعـد . .

(ب) الطريقة المعنوية ، طريقة حُنين بن اسحق ، وذلك ان يأتي الناقل الى الجملة فيحصّل معناها في ذهنه ثم يعبر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها في المعنى ، سواء آستوتِ الجملتان في عدد الكلمات ام اختلفتا .

*

تَرَاجِمُ نَفَرٍ مِنَ ٱلنَّقَلَةِ

فيما يلي تراجم نفر من النقلة ، وسنعالجهم كما قلنا من قبل عـلى انهم نَقَلة لا اصحاب تفكير مستقل :

حنين بن اسحاق هو ابو زيد حُنين بن اسحق العبادي (بفتح العين وتخفيف الباء) من نصارى الحيرة بالعراق (قرب الكوفة عـلى الفرات) ، نسطوري النحـلة سرياني اللغـة .

ولد حنين سنة ١٩٤هـ (٨١٠م) في الحيرة حيث كان ابوه صيدلانيا. ولما بدأ يتلقى الطب على يوحنا بن ماسويه حدثت بينهما وحشة فطرد يوحنا حنيناً واهانه بقوله: ما

لاهل الحيرة ولتعلم صناعة الطب . . . اذهب واشتغل بالصيرفة كابناء بلدك » . ثم طرده من حضرته . حينئذ ذهب حنين الى بلاد الروم (آسية الصغرى) وتعلم هنالك اللغة اليونانية وصناعة الطب . ثم زار الاسكندرية لطلب الفلسفة وزار فارس استتماماً لصناعة الطب ، ولما عاد من رحلته هذه استقر حيناً في البصرة واتقن اللغة العربية على الخليل بن احمد اشهر علماء العربية يومذاك . ثم انه انتقل الى بغداد واتصل ببلاط المأمون فولاه رئاسة دار الحكمة للنقل . وكذلك نال حظوة عند الخليفة المتوكل . وفي بغداد اصبح حنين أشهر الاطباء واشهر النقلة .

وكثر حسد الناس لحنين فكان خصومه في صناعة الطب يقولون : ما لحنين والطب، انما هو ناقل لهذه الكتب ليأخذ عليها الاجرة كما يأخذ الصنّاع الاجرة على صناعتهم ، ولا فرقَ بينه وبينهم . وانه كالقين يصنع السيف ولا يستطيع ان يضرب به ، فما له ولصناعة الطب وهو لم يحكم في عللها وامراضها وانما قصده التشبه بنا ليقال حنين المتطبب لا حنين الناقل .

وكان في ذلك الحين حركة ثائرة في بلاد اليونان هي النزاع الديني القائم على تكريم الايقونات (الصور والتماثيل الدينية) او الغائها . وكان حنين لا يؤمن بالتعبّد للصور والتماثيل ، وكان يتظاهر بذلك . وقد تفل ذات يوم على ايقونة للمسيح وامه فاهانه الجاثليق Catholicos (رئيسه الديني) وحرمه ، فحزّ ذلك في نفس حنين فاغتم ومات منتحراً بالسم — في السادس من صفر ٢٦٠ (٣٠ تشرين الثاني ٨٧٣) .

ولحنين بن اسحق كتب كثيرة متنوعة الموضوعات . ثم ان بعضها نقولٌ من اليونانية وبعضها اصلاح لنقولٍ سابقة ، وربما كان بعضها تأليفاً ايضاً . واكثر كتبه على طريقة المسألة والجواب .

(أ) الكتب الطبية : كتاب في العين — كتاب الترياق — كتاب في ان الطبيب الفاضل يجب ان يكون فيلسوفاً — شرح كتاب الغذاء لابقراط — مقالة في تدبير الناقهين — كتاب في النبض — كتاب في الحميات — كتاب حفظ

الاسنان – كتاب معرفة اوجاع المعدة . واكثر كتبه الطبية شروح لكتب جالينوس او اختصار لها : اختصار كتاب جالينوس في الادوية المفردة – جوامع كتاب جالينوس في الذبول – ثمار السبع عشرة مقالة الموجودة من تفسير جالينوس لكتاب ابذميا (١) لابقراط .

(ب) الكتب الفلسفية : كتاب السماء والعالم – كتاب في المنطق – كتاب فيما يُقرأ قبل كتب افلاطون – كتاب قاطيغورياس – كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء – شرح كتاب الفراسة لارسطوطاليس – كتاب في ادراك حقيقة الاديان .

اسحق بن حنين هو ابو يعقوب اسحق بن حنين بن اسحق ، شهد ايام المعتمد والمعتضد والمقتدر وكان معاصراً لابن الرومي الشاعر وصديقاً للقاسم بن عبيدالله وزير المعتضد . وعاش اسحق طويلاً وُفلج في آخر ايامه وتوفي سنة ٢٩٨ هـ (اول ٩١١) ببغداد . وكان اسحق مثل « ابيه في النقل وفي معرفته باللغات وفصاحته فيها . الا ان نقله للكتب الطبية قليل نادر بالنسبة الى ما يوجد من كثرة نقله من كتب ارسطوطاليس في الحكمة وشروحها الى لغة العرب » (طبقات ١ : ٢٠٠) .

ولاسحق من كتب الطب : كتاب الادوية المفردة – كتاب الادوية في كل مكان – كتاب الفصول لابقراط – كتاب في النبض . اما كتب الفلسفة والعلم فله منها : اختصار كتاب اقليدس – كتاب المقولات – كتاب ايساغوجي – كتاب آداب الفلاسفة ونوادرهم – مقالة في التوحيد .

ثابت بن قرة ولد ابو الحسن ثابت بن قرّة سنة ٢١١ هـ (٨٢٦ م) في حرّان على دين الصائبة (الوثنيين من عبدة النجوم)، وكان في اول امره صيرفياً.

---

(١) الوبـاء Epidemia

وكان ثابت يحسن العربية والسريانية فاستصحبه محمد بن موسى بن شاكر معه لما خرج الى بلاد الروم يطلب كتب العلم والفلسفة، ثم وصله ببلاط الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) فادخله المعتمد في جملة المنجمين. وكذلك نال خطوة عند المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ). وتوفي قبل المعتضد بنحو عام واحد (٢٨٨هـ = ٩٠١م).

وقد سعى ثابت بن قرة في حياته الى ان يرفع شأن طائفته الصابئة فعلت منزلتها ثم اصبح هو رئيساً عليها.

ولثابت ارصادٌ حسانٌ للشمس تولاّها ببغداد وجمعها في كتاب بيّن فيه مذهبه في سنة الشمس وما ادركه بالرصد في موضع أوجها (١) ومقدار سنيها وكمية حركتها وصورة تعديلها» (طبقات ١ : ٢١٦). اما في الطب فقد انقذ رجلاً من موت ظاهر على اثر غشيان (راجع طبقات ١ : ٢١٦ - ٢١٧). واما في الفلك فقد « استخرج ثابت حركة الشمس وحسب طول السنة النجمية فكان ٣٦٥ يوماً وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان، فكان ما وصل اليه يزيد على طول السنة الحقيقي بمقدار هو اقل من نصف ثانية.

وكان ثابت ناقلا بارعا ومصنفا قديراً له من الكتب المتنوعة عدد كبير: كتاب سبب كون الجبال - كتاب في النبض - اختصار المنطق - كتاب في السبب الذي جعلت من اجله مياه البحار مالحة - اختصار كتاب ما بعد الطبيعة (لارسطو) - جوامع كتاب الادوية المفردة لجالينوس - مختصر في الاصول من علم الاخلاق - كتاب في قطع المخروط المكافىء - مقالة في حساب خسوف الشمس والقمر - كتاب في الطريق الى اكتساب الفضيلة - كتاب في تشريح بعض اعضاء الطيور - تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية - كتاب حساب الاهلّة (اوجه القمر) - رسالة في الحصى المتولد في المثانة - كتاب في الجدري والحصبة.

---

(١) الاوج : ابعد نقطة عن الارض يصل اليها كوكب ما.

سنان بن ثابت « كان ابو سعيد سنان بن ثابت بن قُرّة يلحق بابيه في معرفته بالعلوم واشتغاله بها وتمهره في صناعة الطب، وله قوة بالغة في علم الهيأة » (طبقات ١ : ٢٢٠) . وقد توفي ٣٣١ هـ (٩٣٤ م) على الاسلام .

ولسنان بن ثابت يرجع الفضل في انشاء البيمارستانات السيارة والزيارات الطبيه ، وذلك بان يذهب الاطباء ومعهم الاغذية والادوية لزيارة السجون او لتمريض اهل النواحي النائية والاهتمام بصحتهم . وفي سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) اخطأ بعض المتطببين في معالجة رجل من العامة فمات الرجل ، فامر الخليفة المقتدر الا يتصدى احد لمعالجة الناس الا اذا ادّى امتحاناً، وجعل امر هذا الامتحان الى سنان بن ثابت بن قرة. فامتحن سنان في نواحي بغداد وحدها نحو تسعمائة متطبب واشار على كل واحد منهم بما يجب ان يتصدى له. اما الذين كانوا ذوي تقدم وشهرة فلم يمتحنهم . وكذلك انشأ سنان بن ثابت بيمارستاناً في بغداد لمعالجة الفقراء .

ويظهر ان سنان بن ثابت كان من النقلة فقد نقل الى العربية كتاب نواميس هرمس واصلح بعض النقول القديمة . وله من الكتب : مقالة في الاشكال ذوات الخطوط المستقيمة التي تقع في الدائرة — رسالة في النجوم — رسالة في شرح مذهب الصابئين — رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر ، الخ .

قسطا بن لوقا قُسطا بن لوقا يوناني الاصل ، ولكنه ولد سنة ٢٠٥ هـ (٨٢٠ م) في بعلبك فعرف بالبعلبكي . ولما شب ذهب الى آسية الصغرى ليدرس . ثم عاد الى العراق وقد جلب معه تصانيف يونانية كثيرة واستقر في بغداد لينقلها من اليونانية الى العربية (١) وفي آخر حياته دعاه سنحاريب احد أمراء ارمينية فذهب اليه ، وهنالك توفي سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) .

---

(١) يذكر ابن ابي اصيبعة ١ : ٢٤٤ ان قسطا بن لوقا كان في ايام المقتدر ، ولكنه وام على الاغلب لأن المقتدر جاء الى الخلافة سنة ٢٩٥ هـ بينا قسطا قد ولد سنة ٢٠٥ هـ (٨٢٠ م) وتوفي سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) . وفوق ذلك فان قسطا كان في اواخر ايامه في ارمينية وبقي هنالك حتى توفي .

وكان قسطا بن لوقا مقتدراً في الرياضيات والفلك والمنطق والطب والموسيقى. ثم انه كان بارعاً في اللغات اليونانية والسريانية والعربية جيد النقل ، نقل كتباً كثيرة من اليونانية الى العربية ، واصلح نقولاً قديمة .

ولقسطا بن لوقا من الكتب : كتاب الروائح وعللها - كتاب الأغذية - كتاب النبض ومعرفة الحميات وضروب البحرانات - كتاب علة موت الفجأة - رسالة في المروحة واسباب الريح - المدخل الى علم الهندسة - الفرق بين الحيوان الناطق وغير الناطق - كتاب الفرق بين النفس والروح - كتاب الجزء الذي لا يتجزأ - كتاب في النوم والرؤيا - كتاب في حساب التلاقي على طريق الجبر والمقابلة - كتاب في المرايا المحرقة - كتاب الاستدلال بالنظر الى اصناف البول - كتاب في شكوك كتاب اقليدس - كتاب الفردوس في التاريخ - كتاب في البخار الخ .

يحيى بن عدي ولد الشيخ ابو زكريا يحيى بن عديّ في تكريت . ولما شب انتقل الى بغداد وتلقى فيها العلم على الطبيب النسطوري ابي بِشْر متّى بن يونس وعلى الفارابي وغيرهما .

وكان يحيى بن عدي يعقوبي النِحلة « دافع عن ايمان الكنيسة السريانية والمعتقدات النصرانية ، ولا سيما فيما يتعلق بالتثليث » .

وقد انتهت اليه رئاسة اهل المنطق في ايامه ، وكان له تصانيف وتفاسير ونقولٌ . وكان فوق ذلك كثير النسخ ، نسخ تفسير الطبري مرتين ، ونسخ من كتب المتكلمين ما لا يُحصى ، وكذلك كان يصلح نقول الآخرين (يصححها) .

وتوفي يحيى بن عدي في اواخر القعدة ٣٦٣ ﻫ على الاغلب (١) و٨٧٣ م .

ونقل يحيى بن عدي كتاب ما بعد الطبيعة لارسطو - كتاباً لثاوفرسطس من السرياني الى العربي .

---

(١) راجع القفطي ص ٣٦٣ و ٤٦٣ . GAL I 207, Suppl. I 370

وكذلك فسر كتباً لارسطو منها : طوبيقا — المقالة الثامنة من السماع الطبيعي — فصل من كتاب ما بعد الطبيعة — مقالة الاسكندر (الافروديسي) في الفرق بين الجنس والمادة .

وله كتب يبدو انها تأليف او اقتباس على الاغلب ، منها : مقالة في تزييف قول القائلين بتركيب الاجسام من جزء لا يتجزأ — عدة مسائل في كتاب ايساغوجي — مقالة في الموجودات — مقالة في سياسة النفس — رسالة في تهذيب الاخلاق .

على ان له كتباً هي تأليف ، اكثرها في الردود الدينية ، منها : مقالة في صحة اعتقاد النصارى في الباريء عز وجل انه واحد ذو ثلاث صفات — رسالة في الرد على النسطورية . . . .

كتاب تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ (منتخبات)

ليست نسبة هذا الكتاب ليحيى بن عدي ثابتة الا على الترجيح (١). وهي اذا صحت فليس فيها جديد في الاخلاق فوق ما يذكر اخوان الصفا مثلا.

ان الانسان من بين سائر الحيوان ذو فكر وتمييز . . . . يحب من الامور افضلها . . . . ما لم يغلبه هواه في اتباع اغراضه . واول ما اختاره الانسان لنفسه . . . . ان يكون مرتاضاً بمكارم الاخلاق . . . . فهو يسعى الى اكتساب كل شيمة سليمة من المعايب . . . .

الُخلق حال يفعل بها الانسان اعماله بلا روية ولا اختبار (١) ، والخلق في الناس قد يكون غريزة وطبعاً ، وفي بعض الناس لا يكون الا بالرياضة والاجتهاد . . . . فاما الاخلاق المذمومة فانها موجودة في كثير من الناس . . . .

---

(١) راجع مقدمة كتاب تهذيب الاخلاق ، ص ٤ — لناشره فؤاد جقي ، القدس ١٩٣٠ .

(٢) كذا في النسخ المطبوعة ولعلها : اختيار بالياء المثناة من تحتها .

والناس مطبوعون على الاخلاق الرديئة منقادون للشهوات الدنيئة ، ولذلك وقع الافتقار الى الشرائع والسنن والسياسات المحمودة . . . . .

في العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق

فأما العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق فهي النفس . وللنفس ثلث قوى وهي تسمى ايضاً نفوساً : وهي النفس الشهوانية والنفس الغضبية والنفس الناطقة ، وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى . فمنها ما يختص باحداهن ومنها ما يشترك فيها قوتان ومنها ما يشترك فيها القوى الثلاث . ومن هذه القوى ما يكون للانسان وغيره من الحيوان ، ومنها ما يختص به الانسان فقط .

اما النفس الشهوانية فهي للانسان ولسائر الحيوان وهي التي تكون بها جميع اللذات والشهوات الجسمانية كالمآكل والمشارب والمباضعة . وهذه النفس قوية جداً ، واذا لم يقهرها الانسان ويؤدبها ملكته واستولت عليه ، فاذا أستولت عليه عسر تهذيبها وصعب قمعها وتذليلها . فاذا تمكنت هذه النفس من الانسان ، وملكته ، وانقاد لها كان بالبهائم اشبه منه بالانسان ، لأن أغراضه ومطلوباته تصير ابداً مصروفة الى الشهوات واللذات فقط . وهذه هي عادات البهائم .

ومن يكون بهذه الصفة يقل حياؤه ، ويكثر خرقه ، ويستوحش من أهل الفضل ، ويميل الى الخلوات وينقبض من المجالس الحفلة ، ويشنأ أهل الورع والنسك ، ويبغض أهل العلم ، ويود أصحاب الفجور ، ويستحب الفواحش ، ويكثر من ذكرها ، ويلذ باستماعها ، ويسر بمعاشرة السخفاء ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو . وقد يصير من هذه حالته الى الفجور وارتكاب الفواحش والتعرض للمحظورات ، وربما دعته محبة اللذات الى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها ، وربما حملته نفسه على الغصب والتلصص والخيانة وأخذ ما ليس له به حق . فان اللذات لا تتم الا بالأحوال والأعراض ، فمحب اللذة اذا تعذرت عليه الأحوال من وجوهها ، جسرته شهوته على اكتسابها من غير وجوهها .

ومن تنتهي به شهواته الى هـذا الحد فهو أسوأ الناس حـالاً ، وهو من الاشرار الذين يخـاف خبثهم ، ويستوحش منهم ، ويستروح الى البعد عنهم .

ويصير واجبـاً على متولي السياسات تقويمهم وتأديبهم وابعادهم ونفيهم حتى لا يختلطوا بالناس . فان في اختلاط من هذه صفته بالناس مضرة لهم ، وخاصة لأحداثهم ،فان الحدث سريع الانطباع ونفسه مجبولة على الميل الى الشهوات ، فاذا شاهد غيره مرتكباً لهـا مستحسناً للانهماك فيهـا ، مال هو الى الاقتداء به والى مساعدة لذته .

وأما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها كان ضابطا لنفسه عفيفاً في شهواته ، محتشماً من الفواحش محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات . فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم وعفـة بعضهم وفجور بعضهم ، هي أختلاف أحوال النفس الشهوانية فانها أذا كانت مهذبة مؤدبة كان صاحبها عفيفاً ضابطاً لنفسه . واذا كانت مهملة مسترسلة مالكة لصـاحبها كان صاحبها شريراً . واذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفة ، كرتبته في التأدب .

فمن أجل ذلك وجب أن يؤدب الانسان نفسه الشهوانية ويهذبهـا حتى تصير منقادة له فيكون هو مالكها فيستعملها في حاجاته التي لا غنى عنها ويكفها عما لا حاجة به اليه من الشهوات الرديئة واللذات الفاحشة .

فأما النفس الغضبية فيشترك فيها الانسان وسائر الحيوان وهي التي يكون بها الغضب والجرأة ومحبة الغلبة . وهـذه النفس أقوى من النفس الشهوانية وأضر لصـاحبها اذا ملكته وانقـاد لها . فان الانسان اذا انقـاد للنفس الغضبية كثر غضبه وظهر خرقه واشتد حقده وعدم حلمه ووقاره وقويت جرأته وأسرع عند الغضب الى الانتقام والايقاع بمغضبه والوثوب بخصومه فأسرف في العقوبة وزاد في التشفي فأكثر السب وأفحش فيه ، فاذا استمرت هذه العادات بالانسان كان بالسباع أشبه منه بالناس . وربما حمل قوماً على حمل السلاح وربما أقدموا على القتل والجراح وربما قدموا بالسلاح على اخوانهم وأوليائهم وعبيدهم وخدمهم عند الغضب

اليسير من الامور . وربما غضب مَن هذه حالته ولم يقدر على الانتقام من خصمه فيعود بالضرب والسب والألم على نفسه. فمنهم من يلطم وجهه وينتف لحيته ويعض يده ويسب نفسه ويذكر عرضه .

وأيضاً فان من تملكه النفس الغضبية يكون محباً للغلبة متوثباً على من آذاه مقدماً على من ناوأه طالباً للترؤس من غير وجهه ، فاذا لم يتمكن من الرئاسة توصل اليها بالحيل الخبيثة فاستعمل كل ما يمكنه من الشر . وهذه الأفعال تورط صاحبها وتوقعه في المهاوي والمهالك . فان من وثب على الناس وثبوا عليه ، ومن خاصمهم خاصموه، ومن أقدم عليهم أقدموا عليه، ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر. وربما سفه الانسان على خصمه وكان الخصم أسفه منه ، فان ناله بسوء قابله ذلك باكثر منه، وقد يغلب على من هذه حالته الحسدُ والحقد والقحة واللجاج والجور . وقد تحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرئاسة على اكتساب الأموال من غير وجوهها واخذها بالغصب والغلبة والظلم . وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم . وقد يفعلون ذلك من غير روية فيؤول الأمر بهم الى البوار والاستئصال .

فاما من ساس نفسه الغضبية وأدبها وقمعها كان رجلا وقورا عادلا محمود الطريقة . فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غضبهم وخرقهم وحلم بعضهم وسفاهة بعض هي اختلاف احوال النفس الغضبية ، واذا كانت مذللة مقهورة كان صاحبها حليما وقوراً ، واذا كانت مهملة مستولية على صاحبها كان صاحبها غضوبا سفيها ظلوما غشوما . واذا كانت النفس متوسطة كان صاحبها رتبته في الحكم كرتبة نفسه الغضبية في التأدب .

فمن أجل ذلك وجب ان يروض الانسان نفسه الغضبية حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها في الظروف التي يجب استعمالها فيها . ولهذه النفس ايضا فضائل محمودة كالأنفة من الأمور الدنيئة ومحبة الرئاسة الحقيقية وطلب المراتب العالية . وهذه الأخلاق المحمودة هي من افعـــال النفس الغضبية ، فـاذا ملك الانسان هـذه

النفس بالتأديب والتهذيب واستعملها في الأمور الجميلة وكفها عن الاعمال المكروهة كان حسن الحال محمود الطريقة .

فأما النفس الناطقة فهي التي بها يتميز الانسان من جميع الحيوان ، وهي التي بها يكون الفكر والذكر والتمييز والفهم، وهي التي عظم بها شرف الانسان وعظمت همته فاعجب بنفسه . وهي التي بها يستحسن المحاسن ويستقبح القبائح وبها يمكن الانسان ان يهذب قوتيه الباقيتين وهي الشهوانية والغضبية وبضبطها ويكفها ، وبها يفكر في عواقب الأمور فيبادر باستدراكها من اوائلها . ولهذه النفس ايضا فضائل ورذائل .

أما فضائلها فاكتساب العلوم والآداب وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش وقهر النفسين الاخريين وتأديبها وسياسة صاحبها في معاشه ومكسبه ومروءته وتجمله وحث صاحبها على فعل الخير والتودد والرقة وسلامة النية والحلم والحياد والنسك والعفة وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة .

وأما رذائلها فالخبث والحيلة والخديعة والملق والمكر والحسد والتشرر والرياء ، وهذه النفس هي لجميع الناس الا أن منهم من يغلب عليه رذائلها فيألفها ويستمر عليها ، ومنهم من يجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل . وهذه العادات قد تكون في كثير من الناس سجية وطبعا لا بتكلف .

فأما المطبوع على العادات الجميلة منها فتكون لقوة نفسه الناطقة وشرف عنصره ، وأما المطبوع على العادات المكروهة فلضعف نفسه الناطقة وسوء جوهره . واما الذي تجتمع فيه فضائل ورذائل فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال .

وقد يكتسب اكثر الناس من هذه العادات وجميع الاخلاق جميلها وقبيحها اكتساباً ، وذلك يكون بحسب منشأ الانسان وأخلاق من يحيط به ويشاهده ويقرب منه ، وبحسب رؤساء وقته ، فان الحدث والناشيء يكتسب الاخلاق ممن يُكثر ملابسته ومخالطته ، ومن ابويه واهله وعشيرته .

فاذا كان هؤلاء سيئي الاخلاق ، مذمومي الطريقة كان الحدث ايضا سيء الاخلاق مكروه العادات . واذا لحظ الحدث ايضا أهل الرئاسة ومَن فوقه وغبطهم على مراتبهم آثر التشبه بهم والتخلق بأخلاقهم . فـان كانوا مهذبي الاخلاق،حسني السيرة كان المتشبه بهم حسن الاخلاق مرضي الطريقة . فان كانوا اشراراً جهالا ، خرج الغابط لهم السالك طريقهم شريرا جاهلا . وهذه الحال هي أخلاق اكثر الناس ، فان الجهل والشر والخبث والشره والحسد غالب عليهم . والناس بالطبع يقتدي بعضهم ببعض ، ويحتذي التابع ابـدا سيرة المتبوع ، واذا كان الغـالب عليهم الشر والجهل ، وجب ان يقتدي احـداثهم وأولادهم فأتباعهم بهم .

فالعلة الموجبه لاختلاف اخلاق الناس في سياساتهم وفضائلهم وغلبـة الخير والشر عليهم هي اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم : اذا كانت خيرة فاضلة قاهرة للنفسين الباقيتين كان صاحبها خيرا عادلا حسن السيرة ، واذا كانت شريرة خبيثة مهملة للنفسين الأخريين كان صاحبها شريرا خبيثا جاهلا .

فمن اجل ذلك وجب ان يُعمل الانسان فكره ، ويميز اخلاقه ، ويختار منها ما كان مستحسناً جميلا، وينفي منها ما كان مستنكراً قبيحا، ويحمل نفسه على التشبه بالأخيار ويتجنب كل التجنب عادات الاشرار . فـانه اذا فعل ذلك صـار بالانسانية متحققا وللرئاسة الذاتية مستحقا .

فأما انواع الاخلاق وأقسامها ، وما المستحسن منها ، وما المستحب اعتياده وما يُعد فضـائل ، وما المستقبح منها المكروه ، وما يعد نقـائص ومعايب فهي الانواع التي نحن واصفوها .

للمؤلف :

دِرَاسَاتٌ قَصِيرَة

١ ـ الحجاج بن يوسف
٢ ـ عمر ابن ابي ربيعة
٣ ـ ابن المقفع
٤ ـ الرسائل والمقاومات
٥ ـ ابن الرومي
٦ ـ احمد شوقي
٧ ـ ابن خلدون
٨ ـ اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوروبية
٩ ـ شعراء البلاط الاموي
١٠ ـ الفارابيان : الفارابي وابن سينا
١١ ـ اربعة ادباء معاصرين
١٢ ـ خمسة شعراء جاهليين
١٣ ـ بشار بن برد
١٤ ـ نهج البلاغة
١٥ ـ اخوان الصفا
١٦ ـ ابن باجه
١٧ ـ ابن طفيل
١٨ ـ التصوف في الاسلام
١٩ ـ الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب

*

دِرَاسَاتٌ أُخَرُ

ابو نواس ـ دراسة ونقد
ابو نواس ـ مختارات
ابو تمام
حكيم المعرة
عبقرية العرب في العلم والفلسفة
الاسلام على مفترق الطرق
نحو التعاون العربي
دفاعاً عن العلم
دفاعاً عن الوطن